إلى ابني الحبيب
خالد مع تحياتي،
والدك المحب

الكوخ

وقصص أخرى

بقلم

حسين محسب

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

السكوخ



« .. كان صبيا فى حوالى العاشرة
من عمره .. قويا .. فى ملامحه
صرامة أبناء الجبال ورجولتهم
المبكرة .. »

انكسر غصن زيتون ، وفر طائر يصرخ مفزوعا .. والرصاصات .. والانفجارات ما زالت تدوى فى الجبل ، وشظاياها تلمع فى سواد الليل البارد .. والريح تعوى فى الصحراء الواسعة المظلمة ، وسقط « زايد » خلف زميله « محمد » الذى كان يغالب جراحه ، ويطلق مع زميليه الرشاشات فى اصرار .. وعناد ! .

.. واقترب الفجر ، وفرت فلول العدو .. وبدأ المجاهدون يستعدون للعودة الى القيادة ، عبر الجبل .. وسلكت كل جماعة منهم طريقا ..

واستدار « محمد » وارتعشت يداه عندما وجد « زايد » ممددا على الرمال ، وقد صبغت دماؤه « آفروله » الكاكى . ووجهه الشاحب ، لم يتمالك نفسه ، فانفلتت صرخة ألم من شفتيه الجافتين ، وركع على الرمال وأخرج من سترته التى تلونها بقع الدم ، منديلا ربطه حول رأس زايد علّه يوقف الدماء .. ولكن عبثا ! .. فصرخ فى زميليه اللذين كانا يجمعان ما تركه العدو من أسلحة وتعاونوا على حمل زايد ، وساروا به بين أشجار الزيتون التى طارت معظم أغصانها ، وتبعثرت تحتها أعشاش الطيور التى فرت ! ..

وكانت خيوط الفجر تضىء لهم طريقهم الوعر بين الصخور .. ان الوقت ضيق ، ولابد أن يصلوا الى القيادة قبل انتشار الضوء.. ولكن زايد يثقل خطاهم ، ويمنعهم من الاسراع وأنفاسهم قد أضناها الاجهاد ، وجراحهم تنزى ، وأيديهم تحمل زايد فى اشفاق وقلق ! ..

.. وسمعوا نباح كلب ، غير بعيد ، تبعه ثغاء بعض الأغنام فتوقفوا وأسرع أحدهم وهو يقبض على سلاحه ، يستكشف الطريق أمامهم ..

.. ومرت فترة وجيزة ولكنها كانت بالنسبة للرفاق الثلاثة طويلة قاسية ، فقد أصبحوا غير راغبين فى معركة جديدة اذا ما كشف أمرهم فالجهد قد نال منهم ، والجراح والقلق أرهقا أعصابهم ! ..

.. ولكن زميلهم ما لبث أن عاد مسرعا ، فى الممر الجبلى ، وقد ارتسم الارتياح على أسارير وجهه الذى يعفره التراب .. وقال فى صوت لاهث :

— « كوخ لراع عجوز .. وان كنت غير متأكد تماما أنه يعيش وحده » .

وأحس الرجال بارتياح ، فوضعوا أسلحتهم خلف ظهورهم وحملوا زايد ، ومضوا بين الصخور ، فى الممر الضيق ، الذى تصفر فيه ريح الفجر فى عنف .

ورغم برودة الجو فقد لمعت حبات من العرق على وجوههم الصارمة ..

.. وطرق « محمد » باب الكوخ فى رفق ومضت لحظات قلقة قبل ان يفتح الباب ، ويخرج منه رجل متقدم فى السن بادى التعب والاجهاد ..

ودار محمد فى وجه العجوز بعينين يقظتين ، وخطر له والده الشيخ عندما رأى لحية صاحب الكوخ ، وسماحة وجهه ، الا أنه تخلص سريعا من ذكرياته ، وتقدم الى الرجل ، وقال :

— « هل تسمح لنا أيها الأب .. بأن نستضيف أنفسنا عندك لحظات ؟ » .

ونظر الرجل الى الرجال الثلاثة ، وأغمض عينيه قليلا ثم فتحهما ، لتستقرا على جسد زايد . ويتمتم أحد الرفاق .

— « انه يموت .. فهل .. » .

ولم يتم كلامه ، فقد أفسح الرجل الطريق ..

***

وفى الداخل ، بذل الزملاء كل ما فى وسعهم لوقف الدماء التى كانت تسيل وتغرق الشعر الأسود ..

وأحس الرجال الثلاثة باليأس يقبض نفوسهم ، ونظروا الى بعضهم فى حيرة ..

ووضع العجوز أمامهم اناء من الفخار ، به قليل من اللبن وقال فى حنان :

— « انكم جائعون يا أبنائى .. أليس كذلك !! » .

وصمت قليلا .. ثم قال وعيناه على كمية اللبن الضئيلة :

— « ما حيلتى .. الأغنام شح لبنها من البرد .. والمراعى حرقها الفرنسيون الأوغاد .. وجاسر .. تورمت أصابعه ساعتين حول أثدائها الجافة و .. » .

ودخل جاسر .. ومعه اناء آخر صغير ، ملأه باللبن ، ولكنه

أجفل عندما رأى الفدائيين الثلاثة فى ثيابهم الكاكية المعفرة .. المبقعة بالدماء ..

والتقت نظرات الفدائيين بنظرات جاسر فى صمت .. ثم تبادلوا ابتسامة لمعت فى عيونهم ..

وهتف العجوز ، وهو ينظر الى حفيده :

— « ماذا حدث ؟ .. تعـالَ يا ولدى .. انهم أصـدقاء .. زملاء عمك .. » .

وتقدم جاسر ..

.. كان صبيا فى حوالى العاشرة من عمره ، قويا ، فى ملامحه صرامة أبناء الجبل .. ورجولتهم المبكرة .. وخصلات شعره تبرز من تحت غطاء رأسه ؛

وقال العجوز وهو يملأ كوزا باللبن :

— « .. لم يعد لى فى الدنيا غير حفيدى جاسر .. وابنى عمار .. فى الميدان لم أره منذ زمن !.. » .

وحمل كوز اللبن ، واقترب من « زايد » الذى تنزف دماؤه .. ومسح براحته الخشنة على جبهته ، ثم رطب شفتيه الجافتين الملوثتين بالدماء ببعض اللبن ، وهو يتابع حديثه :

— « حاولت أن أمنع فرحات من الذهاب الى « بن بيلا » فى الجبل .. من أجل ابنه جاسر .. ولكن ..

وصمت العجوز ، ثم رفع رأسه ، ونظر الى الرجال فى اهتمام، وقال :

— « أبدا يا أولادى .. لم أكن خائفا عليه من الاستشهاد ، أو حاولت .. أو حاولت أن أمنعــه من مساعدتكم فى الكفاح لتحرير الجزائر .. لا .. أبدا .. ولكن زوجته ماتت .. وابنــه جاسر فى حاجة الى من يرعاه وأنا كما ترون أودع الدنيا !..

وصمت الراعى العجوز ، وعاد يرطب شفتى زايد ، الذى كان قد فتح عينيه للحظات ، ثم عاد يتأوه فى ألم !

واقترب جاسر من الرجال فى بطء ، حتى استطاع أن يرى وجه زايد . وأغمض عينيه عندما رأى الدماء تسيل على وجهه الشاحب و « أفروله » الكاكى المعفر ، ثم أبعد عينيه عن الجراح ، وراح ينظر الى المدافع التى وضعها الرجال بجوارهم وقد ضغط بأسنانه على شفتيه ..

وقال محمد فجأة لرفاقه ، وهو ينظر صوب الباب :

— « الضوء ينتشر .. لابد من العودة الآن .. كفى ما نلناه من راحة .. » .

.. وتأوه زايد فى ألم مزق أعصاب المحيطين به ، وعاد يطبق عينيه ، فبلل العجوز شفتيه باللبن ، وهو يقول :

— « كيف تذهبون به وهو هكذا ؟.. والطريق فى الجبل متعب » .

وعاد زايد يتأوه ، فى ألم متزايد ، وكأنه يود أن يصرخ من هول الآلام فى رأسه ، ثم انتفضت ذراعاه فى رعشة حزينة ، ونظر الى رفاقه ، ثم ارتخى جفناه ، وأصبحت أنفاسه البطيئة لهاثا متلاحقا ! ..

وعاد العجوز فبلل شفتيه باللبن ، وهو يكتم دموعا تكاد تفر من عينيه المتعبتين !..

وتقلصت أصابع جاسر الصغيرة ، وهو يضم راحتيه فى قلق ظاهر ، وعيناه تنتقلان من جراح زايد الى الأسلحة الرابضة بجوار الرفاق ..

وقال أحدهم فجأة :

— « لا يهم أن يطلع علينا الصبح هنا .. » .

وقال العجوز وهو يمسح جراح زايد بطرف ثوبه :

— « اذا لم يكن وراءكم فى القيادة أمر عاجل .. فكما تقول يا ولدى .. لا يهم أن يلحقكم الضوء هنا .. فالمعركة فى بلدنا حيث يوجد العدو وحيث توجدون أيضا !.. » .

وسأله محمد :

— هل ضايقوك كثيرا ؟..

فقال العجوز ، وهو يبلل شفتى زايد :

— الفرنسيون أوغاد .. ليس وراءهم غير المتاعب .. انهم

وباء حل بنا يا أولادى .. وكثيرا ما ألح عليّ ولدى فرحات — رحمه الله وكل شهدائنا .. لأرتحل من هنا الى مكان آخـر أمين » ..

وصمت الرجل قليلا .. وأخذ يبلل شفتى زايد ، ثم قال وكأنه يناجى روح ابنه الشهيد :

— « مكان أمين ؟.. أين هو ياولدى .. والعـدو يحرق أرضنا بحقده من سنين طويلة بغير حق ..» .

واستدار الى الرجال وهو يمسح بطرف حزامه الصـوف ذراع زايد ، واستطرد :

— « .. من سنين وأنا هنا .. ولدت هنا .. وماتت زوجتى وزوجة ابنى .. أم جاسر .. فى هذا الكوخ .. وأغنامى لا تعرف طريقا غير طريق هذا الكوخ و .. لكن الأغبياء سرقوا خمس شياه وعنزتين فى الشهر الماضى .. انهم سفلة لصوص ، يظنون أننا عبيد .. انهم لا يعلمون أننا أصحاب هذه الأرض .. هـذا كوخى ولو حرقونى فيه ما تركته .. ولكنهم لا يرتدعون .. وقد يحرقونه اليـوم أو غـدا .. ولكننى لن أتركه ولو سلبونى روحى ! » ..

وصمت العجوز ، وتدفقت موجات من الحيوية والعزيمة فى أرواح الرجال الذين تذكروا فى حديث الرجل آباءهم وبيوتهم ..

وجاسر ، واقف يرقبهم ، وأصابعه قلقة لا تستقر على وضع .. وشفته تختفى بين أسنانه تارة ، وتارة يبللها بلسانه ، وهو ينقل عينيه على وجوه الرجال ، وجسد الجريح ، ثم .. يحدق فى الأسلحة ..

وداعبه خاطر ، فتقدم من محمد ، ولمس جربندية الذخيرة ، وود لو أمسك بأحد مدافعهم الرشاشة ، ثم انحنى وأمسك بخوذة زايد ، الموضوعة بجوار رأسه المثخن بالجراح .

وقال العجوز ، وهو يضع منديله على رأس زايد الذى كان يئن فى ضعف :

— ليبق زايد معى .. ولتذهبوا أنتم فى رعاية الله الى القيادة ..

وهمّ أحدهم أن يعترض أو يقول شيئا ، ولكن العجوز قاطعه قائلا :

— أعرف ما يدور فى رأسك .. الفرنسيون يمرون من هنا حقا .. ولكن ثق فى الله يا ولدى .. انه لا يترك عباده !..

ولم يجد الزملاء مفرا من الأخذ برأى العجوز ، فودعوا زايد ، وفى نفوسهم حسرة عليه ، وهموا بالخروج عندما قال أحدهم :

— رشاش زايد .. هل تأخذه ؟..

وقال العجوز فى سرعة :

— لا .. انه يحمينا ، ولكن لا تغيبوا كثيرا .. تعالوا لأطمئن عليكم .. بلغوا سلامى لابن بيلا .. حماه الله والرجال كلهم !..

و .. ركع جاسر بجوار الرشاش ..

وودع العجوز ، الرجال الثلاثة — وعرّج فى عودته على حظيرة أغنامه خلف الكوخ ، فاستقبلته بثغاء حبيب الى نفسه ، وراح يناجيها بأعذب الكلمات .. وأخذت الشياه والعنزات تتمسح به فى ود بينما راح الكلب الصغير يدور حول أمه العجوز ..

وقال الرجل لشياهه فى ود :

— سنخرج بعد قليل ، ونرعى فى الشمس كلأ كثيرا .. فلدينا ضيف حبيب .. ولابد أن نطعمه !..

وربت على عنق عنزة رقطاء ، وعاد الى الكوخ يحمل ندفا من الصوف واناء به ماء ليعالج بهما جراح زايد ..

.. وقبل أن يلج باب الكوخ ، عوى الكلب الصغير ، وتبعته أمه ، ثم تعالى نباحهما بشكل أوقف العجوز ، وجعله يدور بعينيه فى توجس ، ونظر طويلا فى الاتجاه الذى سار فيه الرجال الثلاثة فلم ير سوى أشجار الزيتون عند حافة الجبل .. وزحفت عيناه فى الاتجاه الآخر فلمح عربة « جيب » تتخبط فى سرعتها البطيئة فى الممر الجبلى ، الوعر .

ووقف قلب العجوز ، وشعر بالخوف على زايد . فالفرنسيون

كثيرا ما مروا به ، وداعبوه بسخريتهم البذيئة من شيبته ، وذقنه الطويلة ، وكثيرا ما سرقوا عنزة أو شاة بعد أن يفتشوا الكوخ والحظيرة بحثا عن الوطنيين . وكثيرا ما صفع أحـدهم جاسر أو ركله فى قسوة اذا احتج عليهم !..

أما الآن ؟..

لو أن الرجال الثلاثة تأخروا قليلا .. اذن لاطمأن قلبه على زايد .

وأخـذ ينظـر الى العربة ، وهى تقترب ببطء ، كالثعبان والكلبان ينبحان فى جنون ، وكأنهما يصرخان فى وجه العـدو المقترب والشياه قد زادها القلق ، ورفعت آذانها فى ترقب ، وهى تثغو ثغاء كئيبا ..

وخرج جاسر فى سرعة الى جده الواقف عند الباب ذاهلا عن نفسه ..

وصرخ :

— « جدى .. جدى .. زايد يموت ! .. » .

— يموت ؟!..

ووقع الماء من يد العجوز ، وأسرع الى الداخل ، وقد تلاحقت أنفاسه فى اضطراب وخوف ..

وكاد يتعثر فى المدفع الرشاش الذى حمله جاسر من جوار زايد .. ولكنه تماسك وأسرع الى زايد .. وركع بجواره والدموع

تبلل عينيه من الألم والغيظ ، وأخذ يتحسس ذراعيه الملوثتين بالدماء ، ويبلل شفتيه الملتهبتين باللبن !..

وغمغم فى جزع ، عندما صرخ جاسر ، وهو يهرول آتيا من الخارج :

— جدى .. جدى .. عربة جيب .. لقد عاد الفرنسيون ! » .

وأفاق العجوز من حيرته ، وجزعه ، ووقف برهة يستجمع عقله المشتت ، نباح الكلبين يعلو وكأنه استغاثة أو انذار والشياه تثغو فى فزع ..

وحدق العجــوز من ثقب فى جــدار الكوخ فرأى العربة ما زالت بعيــدة ، ويفصل بينها وبين الكوخ ربع ساعة حسب تقديره نظرا لوعورة الممر الجبلى ، وهمس لنفسه :

— « .. سيفتشون الكوخ .. ويأسرون زايد وهو يموت .. أو يقتلونه .. ويحرقون كل شىء ويذبحون الشياه ! .. » .

واربدت سحنته ، وهو يقول :

— « سيقتلوننى أنا وجاسر !.. » .

ونظر الى حفيده فى اشفاق وجزع ، ولكنه فوجىء به وقد لبس خوذة زايد التى بدت كبيرة على رأسه الصغير .. فداعبه خاطر ، ورفت ابتسامة قصيرة فى قلبه !..

ونظر الى زايد الذى يعانى من سكرات الموت وتذكر رفاقه الذين ذهبوا منذ دقائق ، وهتف :

— « انهم لم يبتعدوا كثيرا على ما أعتقد !.. » .

ونظر الصبى الى جده ، من تحت خوذة زايد ، فى حيرة ، ولكنه ذهل عندما اختطف جده الرشاش منه ، واندفع به صوب الاتجاه الذى ذهب اليه الرجال ، ثم أطلق رصاصات متوالية فوق أشجار الزيتون ، وهو يردد :

— « سيسمعون استغاثتنا ! » .

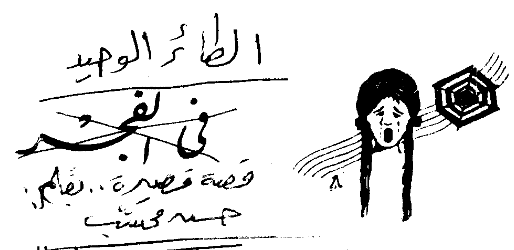
وضغط « التتك » مرة أخرى فخرجت دفعة أخـرى من الرصاص ، فهتف :

— « سيسمعونها يا جاسر ويعودون لنجدتنا .. » وانطلقت الرصاصات ، وهو يردد وقد لمعت عيناه :

— « لابد أنهم سمعونا الآن .. لابد أنهم سمعونا ! وعاد دوى الرصاص يختلط بجلبة العربة وهى تقترب من الكوخ فى سرعة ، وحاصر بعضهم الكوخ ، وهاجم الآخرون الحظيرة .

وبعد لحظة فرت عنزة الى الجبل وقد فقدت أحد سيقانها ولكنها أجفلت فجأة عندما رأت ثلاثة رجال يهرولون بين أشجار الزيتون فى اتجاه الكوخ !..





« .. وركعت بجوار السرير ..
وأحنيت رأسى .. ونسيت أن أصلى
.. خرجت من الغرفة ، ولكننى
عدت مسرعا فقد نسيت أن أجذب
الغطاء على وجهه ! .. »

صرخة رهيبة مزقت سكون البيت المظلم ، واتسعت حدقتى .. ورموشى تصلبت .. وحلقى ، لم أحس بجفافه وسخونته ..

وحبات العرق تتدحرج على جبهتى ، وتسيل الى شفتى .. ودوت صرخة أخرى ، وتبعتها صرخة أختى الصغيرة التى هبت من نومها مفزوعة ..

وعوى كلب فوق السطح ، وتحركت رأسى فوق الوسادة ببطء وكأنها مشدودة الى حجر ضخم . والتقت عينى بضوء السراج الباهت ، الضعيف .. وسقطت ناموسة من فوهة زجاجة المصباح ، واشتعلت .. فازداد الضوء قليلا ، ثم .. خفت .

والتقطت أذنى صراخا أشد .. وبكت أختى سميرة .. وحاولت أن أنهض ، ولكن جسمى المثلج ، كان يلتصق بالفراش ..

و .. خطوات أمى وجدتى ، وأخواتى ، كدبيب فصيلة من الجنود فى البيت المظلم ..

وعوى الكلب فوق السطح مرة أخرى ، وزامت الشاه فى مربطها .. وعوى الكلب مرة ثالثة عواء ممدودا مفزعا .. وللحظة خاطفة ، تذكرت منظر كلب يعوى ، رأيته فى أحد الأفلام يعوى عندما كانوا يعدمون مجرما .

وملأ أذنى نشيج أختى سميرة ، ودوى صراخ جدتى مرتجفا مرتعشا .. يسيل الدموع !..

وانتفضت من رقدتى .. انتزعت نفسى من الفراش ، وتخبطت قدمى فى أرض الحجرة ثم زحفت فى ارتعاش كئيب صوب الباب .. ولكن يداى عجـزتا عن فتحه .. وكدت أنهار ، فاستندت الى الجدار ، وفر صرصور كان يقف بجوار المصباح ، واختفى فى شق صغير .. ولمعت خيوط العنكبوت فى الركن و .. حبات العرق تبلل فمى .. وخوار البقرة يمتزج بثغاء الخروف فى كآبة ..

وعوى الكلب فوق السطح .. وارتعش صراخ أمى وجدتى وأخواتى .. وضعف .. بعد أن بحت أصواتهن .. وفتح باب البيت وجرت أقدام منه الى الداخل ، وحديثهم فى الفناء كطبول رهيبة كثيرة تمزق أذنى ..

وحملتنى قدماى المرتعشتان الى الفناء الغارق فى السواد الذى يبتلع ضوء الذبالة الضعيف ..

وصمتوا جميعا عندما رأونى . وتوقفت قليلا ، ثم زحفت عيناى فى خوف الى باب الحجرة الموارب ، وتعلقتا بالضوء الخافت الذى يتسرب منه ، ومشيت .. وببطء ولجت الغرفة .. فزكمت أنفى رائحة الموت .. وأحنيت رأسى وتقدمت .. و .. استطعت أن ألمس يديه وأنا أنظر الى تقاطيع وجهه الشاحب الصامت !..

.. وركعت بجوار السرير ، وأحنيت رأسى ونهضت .. وخرجت من الغرفة ، ولكننى عدت مسرعا فقد نسيت أن أجذب الغطاء على وجهه .. ورائحة الموت ما زالت تلتصق بأنفى ، فخرجت من الغرفة ، ومن البيت كله ، وسرت فى الحارة ، والكآبة تمتص الغاية والهدف من رأسى ، وتعثرت قدمى فى شىء لين فانحنيت عليه .. كانت جثة كتكوت ، وضعتها بجوار الجدار ومشيت ، وحبات العرق تتدحرج على جبهتى ..

وهتف بى خفير الدرك مرة .. ومرة ، وصوتى غائب فى حلقى الجاف .. لحق بى وأوقفنى ، وحدق فى وجهى ثم تركنى أمضى !..

ورأسى .. أصبح ثقيلا .. ثقيلا .. وبحثت عن سيجارة .. سيجارة .. سيجارة .. سيجارة .. وعدت أفتش جيوبى كلها أكثر من مرة ، ولكن أصابعى كانت ترتجف ، وتمزق جيب ثوبى ..

وتعثرت قدمى فى حجر صغير ثم فى حفرة ، والظلام مكدس كتلال سوداء رهيبة ، ونسمة باردة تلفحنى .. ولكن حبات العرق زادت على وجهى ، ونقرات رهيبة تأتى من بعيد ، وصداها يمزق قلبى وعقلى .. وفتشت جيوبى كلها مرة أخرى .. سيجارة .. سيجارة .. وجاءنى صوت الشيخ عيد مصحوبا بنغمات طبلته الرتيبة الكئيبة :

« الصلاة خير من النوم !.. » .

.. انه يوقظ الناس لصلاة الفجر .. وتنبهت عندئذ لصياح الديكة ، وخوار الماشية ، ونباح الكلب ورائحة الموت تزكم أنفى .. سيجارة !..

و .. أخيرا وجدتنى فى فراغ .. فراغ كبير .. وخرير الماء فى الترعة الكبيرة يبعث الأسى أكثر الى نفسى و .. أطبقت بأصابعى على حديد الكوبرى ، وانحنيت أحدق فى الأمواج الذائبة فى سحب من الضباب .. و « العربجية » يغتسلون ، ويحمون خيولهم ، وحبات العرق تتدحرج على وجهى ..

.. وأصـــابعى تبحث فى تشـــنج عن سيجارة ، فى جيوبى الخاوية !..

وعدت الى الطريق ، وصوت طائر يزعق فى أذنى .. ولمحت

بومة تقفز من فرع شجرة ، وتختفى فى خرابة قريبة ، وتترك صدى عويلها يمزق ما بقى منى !..

..وتذكرت الكتكوت الميت فى حارتنا ، وندمت لأننى لم أدفنه .. وقدماى تتعثران وتصطدمان بالأحجار !.. واقتربت من المسجد .. جذبنى أذان الفجر .. وانزويت فى ركن ، واستيقظ رجل كان نائما بجوارى ويبدو أن انطوائى أثاره ، لأننى بقيت بعد الصلاة منزويا فى الركن .. فاقترب منى ، وهتف فى حنان :

— ما بك يا ولدى .. أراك ترتعش ! .. » .

ونظرت اليه .. ثم أحنيت رأسى ، فهتف بصوت أثارنى أكثر .. وفجر دموعى .. كل دموعى دفعة واحدة :

— ما بك يا ولدى !!..

وصمت .. وتضخمت كلمة « يا ولدى » فى أذنى .. تضخمت ، ثم ذابت فى لمسة عطوف شعرت بها فى قلبى .. ~~فحملت نفسى~~ ، ~~ومضيت مسرعا لأودعه قبل أن يمضى الى الأبد~~ ..

.. نعم .. لقد مات أبى .. انها كارثة .. وسبعة أفواه أصبحت مسئولا عنها أنا .. وأنا لم أزل فى الثامنة عشرة من عمرى .. كارثة !.. لكننى رأيت طائرا وحيدا .. صغيرا .. يحلق .. ينطلق .. بدون والديه .. ولم يكن خائفا .. ولم يكن فزعا .. رغم أن سماء بلدتى تملأها طيور الحدأة والغربان والصقور .. حملت نفسى على التماسك .. ضربت الأرض بقدمى .. فرات جسدى .. سرت القوة فى بدنى .. صرت لا أخاف المجهول .. مضيت مسرعا لأودعه قبل أن يمضى الى الأبد ..

رسالة عاجلة

« .. ولكن فرحتنا اختفت فجأة ..
تلاشت وحل مكانها ذعر لسع أعصابنا
وقبض قلوبنا .. والتقت نظراتنا فى
ذهول حول ثقب فى جانب القارب .. »

الليل أسود .. ينزف ..

وجسمى جريح ، يخدره الألم الذى يلهب ساقى وكتفى .. وزميلى نجيب يضعنى برفق فى القارب ، ثم يدفعه بعيدا عن الشاطىء الملتهب .. واقترب منى ، وهو يخوض المياه التى ارتفعت فوق ركبتيه ، وهمس :

— لا تنس يا فريد .. الرسالة تحت الضمادة .. فوق ساقك .. تنبه لها جيدا .. المنشورات لابد أن تصلنا بسرعة ، الموقف حرج كما تعرف .. بعد مقتل مدير مخابراتهم .. لا تنس ذلك يا فريد .. دعهم يتصلون بنا فورا .. » .

والتقت يدى بيد نجيب لحظة ، ثم ودعنى وعاد الى الشاطىء المحترق ..

وأغمضت عينى أسترجع ما قاله نجيب كلمة .. كلمة .. آه .. كم هو صعب أن أفارق نجيب وبقية الزملاء !..

ودوى فجأة انفجار مروع ، مزق مياه البحيرة بجوار قاربنا الذى اهتز فى عنف وكاد ينقلب ، وصرخ المراكبى وكأنه يشد من أزر نفسه :

— « يا قوى .. أنت القوى !! » .

وهتفت امرأة هتماء :

— سترك ولطفك يا رب !

وبكت طفلة ، وضمتها أمها الى صدرها فى رفق .

.. ولفحت وجهى نسمات باردة .. ودارت عيناى فى السماء السوداء ، ثم انزلقتا تجاه الشاطىء ، الذى كانت تنعقد فوقه سحب داكنة من الدخان واللهب الذى يأكل حى المناخ بلا رحمة !..

ومرق فوقنا سرب من طائرات الأعداء ، ثم اتجه الى الشاطىء وقذفه بالحمم ..

وانكمشت نظراتى فى القارب ، الذى يئن تحت ثقل حمولته من المهاجرين .. وضغط المجدافين ..

وعاد بكاء الطفلة يلوث صمتنا الوجل ، بلون قاتم حزين !..

والمراكبى بين الفينة والأخـرى ، يردد بصوت به ضراعة وخوف :

— « يا قوى .. أنت القوى ! .. » .

والمرأة الهتماء ، لا تكف لحظة عن ترديد استغاثاتها :

— سترك ولطفك يا رب !..

ودارت عيناى بسرعة ، تستكشف زملاء رحلتنا الرهيبة ..

كان القارب يغص بأكثر من عشرة مهاجرين ، ولكن الظلام كان يطمس معالم وجوههم عن نظراتى المتعبة التى عادت تسبح الى الشاطىء الملتهب ..

وعدت بذاكرتى الى رفاقى الذين أصروا على أن أغـادر الميدان ، وحملونى رسالة عاجلة الى القيادة فى المطرية ..

وتوقفت خواطرى عند ذكر الرسالة ، وبصـعوبة حركت ذراعى ، وتحسست موضعها تحت ضمادات ساقى الجريحة .. حقا انه لمكان أمين !..

ولكن انفجارا شديدا أهاج المياه بجوارنا ، فاضطرب القارب ودار حول نفسه فى عنف ، وصاح المراكبى :

— يا قوى !..

ورددت الهتماء فى ضراعة :

— سترك ولطفك يا رب ! ..

وصرخت الطفلة ، واشتد عويلها ، ووقعت من ذراعى أمها ،

على ساقى الجريحة ، لم أحتمل ثقلها .. وآلمنى الجرح ، فتأوهت ، وثارت عندئذ كل جراحى التى تثخن جسدى المنهوك .

.. وتصاعد أنينى رغما عنى ، وحاول رجل عجوز يجلس عند رأسى ، أن يسرى عنى ، ولكننى لم أنس آلامى الا عندما فوجئت بيد تربت على ضمادة ساقى .. حيث تختبىء الرسالة .. أجل .. لكأنما كان فى هذه اليد المجهولة قوة من نوع خاص .. فقد تركزت كل احساساتى فى هذه اليد التى امتدت الى ساقى ..

وجلست مفزعا ويدى تقبض عليها فى عنف فوق الضمادة وانزعجت المرأة صاحبة اليد ، وشعرت بارتجاف أصابعها فى قبضتى القاسية ، وصوبت اليها نظراتى ، التى لا شك أن بريقها قد أذهلها ..

وبعد لحظة غير قصيرة ، وقد اعتادت عيناى على الظلام تبينت أنها فى حوالى الثلاثين من عمرها وترتدى ثوبا غريبا واسعا على جسدها النحيل ، وتلف رأسها بمنديل مثقوب وثمة شعرات تتطاير مع النسمات الباردة حول وجهها ..

.. وازددت قلقا وخوفا على الرسالة ، فأخذت أرقب المرأة النحيلة فى حذر وخوف .. خوف ليس منها وحدها وانما من كل المهاجرين فى القارب .. وخيل الى أننى سأفقد الرسالة بين

لحظة وأخرى .. وسلبنى ذلك الاحساس كل أمل فى لحظة هدوء واحدة أسترد فيها أنفاسى ..

وظلت عيناى مثبتتين على المرأة التى تكورت على نفسها ، وحاولت أن أثنى ساقى المصابة لأضعها تحت ساقى الأخرى ، حتى أطمئن أكثر على الرسالة ، الا أننى لم أتمكن . وأتعبنى الجرح فتأوهت .. واختلجت يد المرأة فى قبضتى ، وراعنى صوتها الرقيق عندما قالت :

— « الجرح يؤلمك !.. » .

ثم تنهدت وأردفت :

— سنصل المطرية حالا .. ونحملك الى المستشفى !

وقال الرجل القابع عند رأسى :

— متى نصل يا ابنتى ؟.. هل رأيت الشاطىء ؟..

فقالت المـــرأة ، وهى لا ترفع عينيها عن عينى ويدها فوق جرحى ويدى تطبق عليها :

— بعد ساعة .. على الأكثر !..

ثم تنهدت ، ومضت فترة قبل أن تقول :

— كنت أسافر مع أبى .. من بور سعيد للمطرية .. مرتين فى اليوم .. وأنا صغيرة ..!

وبدأ الرجل القابع عند رأسى ، يحدث المرأة فى غير ملل ..

وعرفت أنه كان يعمل بوابا بالمدرسة الثانوية .. ولكننى تنبهت فجأة لأجد أننى أكاد أنسى نفسى فى حديثهما فشددت قبضتى أكثر على يد المرأة ، وانتباهى ما زال يحوم حول الرسالة فى قلق !..

ولمعت شظايا انفجار بعيد فى طرف بحيرة المنزلة التى تحيط بقاربنا ، وتبدو كمصير مجهول لنا جميعا ..

وتنهد الرجل ، وقال فى عجب :

— « غريبة .. ولا أيام هتلر ياولاد .. وكل هذا لأننا أخذنا حقنا !.. » .

وقالت المرأة ، وهى تحاول أن تفلت يدها من قبضتى :

— « بعد حرب هتلر .. بعدها اشتغلت فى بار .. وكنت أيامها .. » .

ولم أسمع ما قالته بعد ذلك ، فقد جذبتنى آلام جراحى ، وصدى كلمات نجيب وهو يودعنى ، الى المعركة التى أصبت فيها .. وتلاحقت أنفاسى وصور المعركة تتلاحق فى خيالى ..

لكن القـارب تأرجح فجأة فوق المياه الهائجة المضطربة ، فأفقت لنفسى ، لأجد أصابع المرأة تضغط على الجرح فى عنف ، فحدقت فى وجهها وأنا أكاد أصرخ من الألم وقبضتى تزداد على يدها .. الا أن صرختى ماتت فجأة عندما سمعتها تقول :

— « كان دائما يقول لى اننى لم أكن بكرا عندما تزوجنى.. واننى « بتاعة » انجليز وكبريهات .. » وكان يأتى بامرأة عربيدة معه كل ليلة وهو سكران .. وكان المؤبد عندى أهون من عيشتى معه ..

وصمتت المرأة ، وقد خنق البكاء صوتها المرتعش وازداد تقلص أصابعها على الضمادة ، وازداد تشبثى بيدها وقال الرجل بضعف :

— لا حول ولا قوة الا بالله ..

وردت الهتماء والمراكبى ، وأم الطفلة ، فى وقت واحد :

— « سترك يا رب » .

— « يا قوى .. أنت القوى .. » .

وعادت المرأة تقول فى صوت واهن مرتعش :

— « أمس .. ضربت الطائرات السجن بالقنابل .. ووجدت نفسى فى الشارع .. لكن فرحتى ماتت .. ووقف شعر رأسى عندما رأيت الحرب تحرق الناس والبيوت و .. » .

ثم بكت ، وهى تقول :

— « لم أجد بيتنا فى المناخ .. كانت النار مشتعلة فى البيوت.. وأخواتى .. وأمى .. ماتوا .. هاجروا .. الله أعلم !.. » .

وصمتت ، وقد نشر بكاؤها خيوط الكآبة علينا جميعا .. حتى

الطفلة راعها صمتنا الحزين ، فاختنق بكاؤها وصراخها فى شهقات متلاحقة !..

وفوجئنا بشظية تلمع فى ظلام الليل البارد ، وتصيب ذراع المراكبى ، الذى صرخ فى ألم ، ثم قال فى ضعف :

— « المجداف ضاع ياولاد !.. » .

وتسمرت نظراتنا جميعا على المياه الداكنة ، التى ابتلعت المجداف .. وانتصب المراكبى واقفا ، وأخذ يجدف بالمجداف الباقى ، وهو يلهث ..

وقطع صمتنا الوجل ، صـــوت الطفلة وهى تردد فى أنين مؤلم :

— « أشرب يا ماما .. أشرب !! » .

والتصق صوت الطفلة بأذنى .. وقد شعرت بجفاف حلقى !..

وعادت أصابع المرأة السجينة تتشنج على ساقى الجريحة ، فعادت قبضتى تضغط فى اصرار عليها ..

وفجأة صرخ المراكبى فى ابتهاج ..

— ها .. جزيرة ابن سلام ياولاد !..

— « الحمد لله » قلتها بلا وعى ، وقبضتى تهز يد المرأة ، التى قالت ، وكأنها تزغرد :

— ألم أقل لكم .. سنصل سريعا ..

حتى الطفلة ، قالت بهدوء هذه المرة :

— أشرب يا ماما ..

وقالت أمها وهى تقبلها :

— من عينى يا حبيبتى .. سنصل المطرية ونشرب كلنا !

ولكن فرحتنا اختنقت فجأة ، تلاشت ، وحل مكانها ذعر لسع أعصابها ، وقبض قلوبنا ، عندما شعرنا بالمياه تبللنا ، والتقت نظراتنا فى ذهول حول ثقب فى جانب القارب ، الذى كان يغوص بنا فى بطء ..

واستدار المراكبى بالقارب تجاه جزيرة ابن سلام التى بدت معالمها لنا على بعد ..

وبينما تركزت كل آمالنا فىايقاف تدفق المياه من الثقب بأية وسيلة ، واذا بطائرة تهدر فوقنا ثم .. تقذفنا بقنبلة ، أضاع انفجارها صراخنا وأملنا فى النجاة !..

ووجدتنى أتخبط فى المياه ، التى كانت تصفع وجهى فىموجات غاضبة فى عنف . ودارت رأسى وتراقصت فى عينى النيران ، التى تناثرت مع حطام القارب ثم .. غبت عن الوعى !..

مضى وقت طويل طويل ، قبل أن أفيق الى نفسى قليلا ، وبلا وعى امتدت يدى فى انزعاج الى موضع الرسالة ، ولكنى

لم أجد يد المرأة فوق الضمادة وبحثت عنها بأصابعى ثم بنظراتى فلم أجدها !..

وبصعوبة ركزت نظراتى فى وجـوه الرجال الذين رأيتهم أمامى .. وثمة أصداء لأصوات متألمة تأتى من بعيد ، وتخترق مسامعى :

— « أشرب يا ماما .. سترك يا قوى ..!! » .

وتلاشى صدى الأصوات ، وذاب فى صـدى عنيف لصخب الأمواج و .. الانفجارات ..

وتأوهت ، وتشنجت يدى فوق الضمادة ثم ارتخت فى بطء ، وسؤال يفزعنى ، يقفز الى شفتى ويطل من نظراتى :

— « أين !.. » ؟

وقال أحد الرجال الذين أنقذونى :

— « عملنا المستحيل لننقدهم .. ولكنهم .. مات أكثرهم ! »‌.

وبرقت الدموع فى عينى ، ووجه المراكبى والمرأة السجينة ، والطفلة وأمهـا الحامل والرجل العجوز — بواب المدرسة — تتوارد على خاطرى بشكل ملأ قلبى بالأسى والحزن ، وشعرت باختناق أنفاسى ، فأغمضت عينى على دمعتين !..

فقلت فى استسلام ، وأنا ألتقط أنفاسى بصعوبة :

— خذونى الى المطرية .. لأن معى رسالة عاجلة للقيادة ..

وفى الطريق .. لم أقو على الصمت .. وجدتنى أحدث مرافقى عن الطفلة التى كانت تبكى من الظمأ..والمرأة السجينة .. وبواب المدرسة العجوز والمراكبى الشجاع ..

وأغمضت عينى عندما قال مرافقى :

ـــ انها الحرب دائما .. يا أخى !..



« .. انه لا يدرى لماذا هذه الأسـطر بالذات ، هى التى شغلته ، وجعلتـه يبحث عنها .. ربما لأنه فهم منهـا الحياة ! .. »

كان يسير دائما فى طرقات القـرية ، وعيناه بين قدميه .. مفكرا .. واذا ما تصادف عندما يرفع نظراته ويرى فتاة ، يحمر وجهه ، ويشعر باضطراب فى أعصابه ..

وفى مدرسته .. كان شديد التحفظ فى معاملته لزميلاته ..

هكذا تعلم من ارشادات أبويه المستديمة ، خاصة بعد أن بدأ صوته يخشن .. وظهرت معالم الرجـولة على جسده .. الذى

أصبح فارها .. قويا .. وتعلم الاتزان أيضا من قراءاته الكثيرة للأدب . حتى كان يوم .. وقابل بالصدفة صحفيا كبيرا عــرف بتفكيره الجاد وآرائه الصائبة ، وأخــذا يتجاذبان معا أطراف الحديث .

وانهمك هو فى مناقشة الصحفى فى مشكلة الأدب والواقعية و .. چوركى وتشيكوف وموباسان وأثرهم الكبير فى الأدب والأدباء الشبان .. وكان يربط بين كل هذا بما عرف عنه من لباقة ..

ولكنه فطن الى أن الصحفى أخذ يحدق فيه فى تمعن وقد أحنى رأسه قليلا فظهر شعره الذى وخطه المشيب .. واضحا كله تماما له !..

وفوجىء بالصحفى يقطع صمته ، ويقول له ، وقد افتر فمه عن ابتسامة حنون مرحة :

— « حاول أن تحب يا ولدى .. واكتب الى من تحبها .. حتى لو كانت قريبة منك .. لتنفس عن صدرك .. فأنت لا تزال شابا .. ولا داعى لأن تملأ رأسك وقلبك يأسا من الحياة .. ومن مستقبلك الأدبى .. أنت تكتب قصصا لا بأس بها .. لكن الطريق يا ولدى شاق .. وطويل .. واعتقد أنك اذا اشغلت بالحب ، فسوف ..

ولكن الشاب قاطعه ، وقد ارتعش صوته :

— ماذا .. تنصحنى بأن أحب ؟! ..

وصمت .. وقد صبغ الخجل وجهه وسرت رعشة فى بدنه ، وارتجفت أصابعه التى أخذ يعبث بها فى اضطراب وأحنى رأسه قليلا ، ثم .. رفع نظره الى الصحفى العجـوز ، وقال له فى بلاهة :

— « ماذا .. ماذا تعنى يا سيدى ؟ ! » .

ولم يدر بعد ذلك ما دار بينه وبين الصحفى من أحاديث لجمود تفكيره .

وبعد فترة وجيزة استأذن وانصرف وعاد الى حجرته ، التى يشعر فيها بأنه أكثر حرية ، وشعورا بالحياة وبمن فى الحياة ، وتجاوبا معهم !!..

ووجد نفسه بلا شعور يفتح مكتبته ويأخذ فى البحث عن قصة « ميكا ولتارى » التى فرغ من قراءتها منذ أيام « الظمأ .. للحب » .

.. لم يدر لماذا هو يريد هذه القصة بالذات دون غيرها ، وفى لهفة فتح الرواية عند صفحة معينة ، ثم أخذ يقرأ أسطرا كان قد كتب قبالتها على الهامش تعليقا !..

ووجد نفسه فجأة يرمى بالقصة ، ويرتمى على فراشه ، ولكن فى هدوء ، وفى غير عصبية ..

وسأل نفسه :

— هل أنا بغير قلب ؟.. لماذا ينصحنى الكل بأن أحب ؟.. لابد أن هناك دوافع .. حتى الصحفى الكبير ما كان يحدثنى قليلا ، حتى نصحنى بأن أحب .. قطعا هناك دوافع .. حديثى .. كلامى .. ترى أهو فى حاجة الى رقة ولباقة و .. حنان !.. آتراه خشنا خاليا من الرقة حقا .. ومغرقا فى القنوط .. أم ماذا ؟ !.. » .

انه الآن لا يستطيع أن يؤيد زعمه فى أنه يحب . رغم أنه ما زال حتى الآن يذكر ذلك الاسم ، الذى تراه فى كل قصصه . فما من مرة شرع فى كتابة قصة حتى يجد اسم « ناهد » يسبقه الى البطلة لتتسمى به !..

لقد أيقن تماما أن هذا الاسم علق بذاكرته لمجرد أنه اسم فقط .. لا أكثر من ذلك !..

ووضح له عندئذ شىء كاد ينساه تماما .. قصصه .. قصصه التى يكتبها .. انها تخلو تماما من حوادث غرامية ..

أجل .. لا وجود للحب فيها ، الا فى ذكرى عابرة تكاد تكون لا أهمية لها ..

حقا .. لهم .. لأخوانه .. الحق ! .. فقد نصحوه مرارا أن

يكتب قصصا غرامية ، فكاد يعدهم ، ويهرب من وعده ، معتذرا.. بأنه لم يجرب الحب ، وهو لا يكتب أبدا الا عن تجربة ، فكانوا يتسابقون ، كل يحكى له قصة حبه لفتاة أحلامه ، وكان هو يبتسم عندما يراهم هائمين ، يتكلمون فى صوت شاعرى ، كأنهم يبتهلون فى معبد .. وكان يشعر بحوادث معينة فى كل ما حكى له ، تحرك أشجانه ، وتكاد تمتزج بانفعالاته ، ولكنه كان يهرب ، ويعتذر بأن القصة عمل ناتج من انفعال نفسانى تام ، ومن التجربة ..

ويعـود ليكتب عن الذين يعيشـون فى الأزقة المزدحمة ، والشوارع الخلفية ، بعيدين عن منطقة الضوء مغرقين فى يأسهم!..

ويجهد نفسه فى بعث ضـوء ولو خافت اليهم وكان يجد راحة كبيرة فى ذلك ..

ولعله اذا حاول أن يبحث عن سبب ذلك لما تعب كثيرا ، فانه يستطيع بسهولة أن يلمس فى نفسه حب الكتابة ، وحب الوحدة ، والانزواء فى حجرته ساعات طوال ، يخرج بعدها نهما جوعان يجوس بين الناس والحارات ، بحثا عن قصة جديدة !..

.. أخذ يفكر فى كل هذا ، وهو مرتم على فراشه . ولكن كلمات الصحفى .. والقصة بالذات تراءت له فى حجم ضخم ، يتجسم فى كلمة واحدة .. هى « الحب ! » .

والغريب .. وهو الذى كان يعتقد اعتقادا راسخا بأن الحب « من عند الله » اعتزم أن يحب !..

وهمس لنفسه :

— يا حبذا لو وجدت معبودتى ، كتلك السمراء الفاتنة التى أحلم بها .. أحلم !.. وأصفها فى قصصى ، وأهفو اليها بخيـالى المعذب المحروم !!

ومضى على ذلك أياما عديدة ، وهو يسخر من نفسه ، وقد انقطع عن الكتابة ، كأنما يتحدى نفسه واحساسه وفنه .. اذا كان الفن شيئا غير امتزاج النفس فى الاحساس ! ..

ولكنه ما لبث أن عاد مرغما الى قلمه وأوراقه ! وأخذ يكتب عن البعيدين عن منطقة الضوء .. فى ركن الحياة . ويصهر قواه كلها فى انفعالات تخرج كشعاع لتضىء جزءا من منطقة الظل هذه !..

ونسى تماما كل شىء عن الحب !..

ولم يعد يصغى لأصدقائه الذين كانوا كأنما يئسوا منه ، فلم يذكروا له « الحب » مرة أخرى !! وان كانوا لا يخفـون ابتسامة مبهمة عندما يقرأون قصصه الجديدة ، التى كانت تنم عن عذابه ، وحرمانه !..

وأغرق هو فى حياته ، ولا حب يشغله سوى قصصه وقراءاته وسمراء خياله !..

حتى كان يوم !..

وما أسعده ، فقد خطبت أخته ، وجاء أهل « الخطيب » لزيارتهم ، وبصفته شقيق العروس قابل الزوار ورحب بهم .. وتقدم يصافحهم ..

وكان مع الزوار فتـاة ، كان يعرف أنها شقيقة الخطيب ، فكثيرا ما زارت أخته ..

وما كاد يضع راحته فى يدها ، حتى شعر برجفة ، ووجـد نفسه يضغط يدها ، يبقيها بين أصابعه ، ويحدق فيهـا ببصره النهم .. وبصره نهم دائما !

وتقابلت عيونهما فى نظرة سريعة ، وأفاق « هو » لنفسه ، ولموقفه المحرج ، فشعر بالخجل ، وتمتم بصوت متلعثم ، ببعض عبارات الترحيب !..

ولم يكن من طبعه مجاملة ضيوف مهما كانوا أبدا ولم يكن يجلس الا وقتا يسيرا عند الضرورة !..

ولكنه هذه المرة جلس .. وتمنى أن تطول الجلسة . وكان لا يكاد يحول بصره عن الفتاة التى كانت تبادله النظرات أحيانا .. خلسة !.

واستأذن الضيوف . وضغط على يدها مرة أخرى وشعر بسعادة غامرة ، عندما وجدها هى الأخرى تضغط يده ، وحدق فى جمالها فى نهم وفى عينيها الجميلتين .. وعاد ليغلق على نفسه حجرته ، ويجلس ساعات طوالا يفكر فى جمالها الجذاب ، وعيناها ما زالتا ماثلتين له ، بسوادهما الساحر وأهدابهما الطويلة وخدودها الورديتين ..

وظلت صورة الفتاة ، بقدها الرشيق ، وشعرها الفاحم ، ووجهها الخمرى ، المشرق ، فى مخيلته طوال اليوم .

وفوجىء بشىء غريب أفزعه بادىء الأمر ، فقال لنفسه :

— هل هذا هو الحب !..

ولكنه ما لبث أن قال :

— « ولكننى أعرفها من قبل .. لقد زارت أختى مرارا .. أجل كثيرا ما زارتها ورأيتها رؤية عابرة وسمعت صوتها ، وأنا لا ألقى اليها بالا .. لم أكد أنظر اليها مجرد نظرة واحدة واعية .. أما لماذا نظرت اليها اليوم .. فلا أدرى !!..

.. حقيقة أنه رآها كثيرا ، قبل اليوم . ولكن عيناه لم تكونا تنظران الا لأبطال قصصه البعيدين عن منطقة الضوء ، المغرقين فى يأسهم وحسب !..

وكان يكتفى بقراءة قصص الغرام ليملأ فراغا يشعر به ولا يعترف بوجوده ! ..

— « أجل هذه هى الحقيقة ؟ » .

هكذا همس لنفسه ، وقد قام ليكمل قصة كان قد بدأها قبل مقدم الضيوف ، وانهمك فى الكتابة ، وصورتها بوجهها المشرق بالجمال والفتنة الشابة الساحرة ، لا تزال ماثلة أمامه ، وكأنه يكتب لها وحدها !..

وأخيرا انتهى من القصة ، وهو يتصبب عرقا من شدة الانفعال ، ومن حرارة « يوليو » التى تكتم الأنفاس !

وانهمك فى مراجعة القصة ، وكأنه يقرؤها عليها وما انتهى منها حتى عرته دهشة وملأه العجب !..

وعاد يقرؤها مرة أخرى فى تمعن — حقا انها نفس الحوادث والأشخاص و .. والمشكلة التى يعالجها لم يغير منها شيئا ، ولكنه أحس بشىء غريب .. فيها .. شىء جديد على قصصه لم يلمسه من قبل فيما كتبه ، فما لبث أن ابتسم ، وأشرقت ابتسامته حتى أضاءت وجهه وقد أيقن تماما أن الحب لم يؤثر فى قلبه وحده ، بل انساب الى قلمه أيضا ، فبعث فيه حيوية وحرارة ونشوة ، ولكن ابتسامته ما لبثت أن تقلصت ، وعاد الى نفسه كعادته دائما فى مراجعتها ومحاسبتها فى كل شىء ، وتساءل :

— « ألم يكن حبى هذا مفاجئا .. سريعا .. بل مصادفة !!

ولكن عودة سريعة لماضيه ، ولما فكر فيه منذ هنيهة جعلته يقنع بأنه كان يحب .. يحبها ولا يدرى عنها الا انها سمراء فاتنة ، تعيش فى خياله دائما حتى رآها ، فتجاوب معها بسرعة « هذا هو كل شيء » !!..

وعادت اليه ابتسامة الرضا ، وحدق برهة كأنما يسأل طيفها رأيه فى القصة !..

ولم تخف عليه ابتسامة أصدقائه ، وهو يقرأ عليهم القصة الجديدة .. كانوا .. كأنهم يعرفون سر حبه .. سر الحياة !!

وكعادته .. ما لبث أن غرق فى قراءاته وكتاباته ولكن .. بروح أخرى .. روح نشوى بخمرة الحب الذى جعل من حياته .. قصة جديدة ، كل أبطالها هو .. وهى .. وحدهما .. وكلامها أنغام وأغاريد ، أخذت تسطر القصة التى كانت تقترب من نهايتها السعيدة !



« .. وزحف فى الدرب فى اعياء .. والفوارغ ترتعش فى يديه ، والدنيا كلها تتراقص فى عينيه .. »

الحرارة تذيب الأعصاب .. والحارة ضيقة ، والعمال فى مصنع الحلوى كثيرون .. كخلية النحل .. وحارة الدرب الجديد المتفرعة من شارع الموسكى ، لا تهدأ الا فى ساعة متأخرة .. وكل من فيها يعمل بذوب الأعصاب .. العمال والعاملات والصبية الصغار ، يبذلون كل قطرة عرق فى أجسادهم من أجل الأجر الضئيل ، الذى يحصلون عليه آخر الأسبوع .. ولكنهم مع ذلك يعملون

باحساس بالرضا الا .. « شحته » الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ..

.. وهو غلام شاحب الوجه ، ضعيف البنية من الاجهـاد والازهاق ، الذى يعانيه منذ جاء ليعمل فى مقهى المعلم صقر .. بالدرب .. حيث لا يعرف طعم الراحة الا قرب منتصف الليل .. كل يوم !..

.. كان عليه أن يصعد السلم دورين بالطلبات لعمال المصنع ، وأن يدور فى الدرب الضيق مرات وفى سرعة ، ليجيب الطلبات .. هذا يريد شايا وآخر « كاكولا » وشيشة .. وزعيق العمال فى وجهه لا ينقطع لأن السكر قليل أو الشيشة ليست مضبوطة !..

ولكن نداء المعلم صقر ، يجذبه من المكان الذى يكون فيه .. يجذبه بعنف ، ليذهب فى سرعة الى المقهى ليوصل زجاجة كاكولا للست !!

والست هى « فايزة » صاحبة المصنع ، التى يحبها المعـلم صقر ، ويغازلها :

— (وديت كاكولا للست .. وديت شاى للست .. وديت قهوة للست !!)

وهكذا تختلط فى ذهنه المكدود أوامر المعـلم المتلاحقة ،

بسباب العمال الذى لا ينقطع حتى يكاد رأسه الصغير أن ينفجر ! ..

ويزيد من عذاب شحته ، أن أمه لا تهتم به ودائما تقف مع المعلم صقر .. ضده .. ولم لا ، أليس المعلم صقر هو زوجها ، الذى انتشلها من فقرها — وشجونها بعد موت ، أبو شحته ! ..

.. وفوجىء شحته ذات يوم بالمعلم صقر ، يلقى اليه تعليمات مشددة بعد أن عين عاملا جديدا فى المقهى :

— ولد يا شحته .. أنت تفهم ما أقوله كلمة .. كلمة ..

ثم جذبه من أذنه فى عنف وهو يستطرد :

— « الفوارغ .. فاهم .. الفوارغ .. تلمها من المصنع .. وتفتح عينيك .. الطلبات تخرج بعدد .. ترجع الفوارغ سليمة كاملة بعدد .. فارغة تضيع أو كباية تنكسر .. أقطع رقبتك !.. » .

.. وترك المعلم ، أذن شحته ، وهو يدفع رأسه الصغير فى عنف ..

وانطلق الصبى ، دون وعى ، ليجمع الفوارغ وصوت المعلم يطن فى أذنيه ، والعرق يلمع على وجهه وأنفاسه تتلاحق ، وجلبابه القذر يلتصق بساقيه فيزيد من عذابه ، وأعصابه تهتز مرات وهو نازل السلم يحمل الفوارغ الكثيرة بيديه فى خوف !..

واندفع صوت المعلم رهيبا :

— حاسب ع الفوارغ .. كاملين ؟ ! ..

وقبل أن تصل أذنى شحته هذه التحذيرات كانت قدماه قد زلت وسقط ، وتكسرت الفوارغ .. وأصابت يديه بجروح .. وكاد رأسه يتهشم على درجات السلم ، ولفته غيبوبة ، أفاق منها على صفعات المعلم الذى انفجر كالبركان ! ..

وعندما عاد شحته آخر الليل الى البيت ليبث شكواه الى أمه ، وجدها تجلس على أرض الحجرة ، وقد انهمكت فى غسل قدمى المعلم بماء بارد .. فحبس شحته آلامه فى صدره ، وحمل نفسه فى انكسار .. كعادته ، كل ليلة ، الى الكنبة القديمة ، ورقد فى اعياء ، ولكنه لم يستسلم للنوم بسرعة ، فقد أخذ يفكر فى أمر أمه ..

.. انها تهمله ، بل تكاد تنساه ، عندما يكون المعلم صقر بجوارها !.

وتقلب فى رقدته .. بقلق ، وهو يحس بظمأ شديد الى كلمة رقيقة ، من تلك الكلمات التى تغدقها أمه على المعلم .. كلمة واحدة حلوة .. وتمنى أن يمرض .. يسخن جسمه .. يلتهب .. أو يدوسه الترام أو تطسه عربة .. لكى تحنو عليه أمه ، وتتألم من أجله !..

ولكنه ما لبث أن نام مجهدا !.

وفى اليوم التالى ، كان يصعد السلم الى المصنع ، وأخـذ يمـــر من تحت الترابيزات والآلات زاحفا على ركبتيه ، ليجمع الفوارغ ، وهو يحس بالاجهاد !.

وبعد ساعة ، كان شحته عاجزا عن الحركة .. وانتابه دوار عنيف ، وصداع يدق رأسه كالمطارق .. وبصعوبة حمل نفسه الى بئر السلم .. ثم رقد وقد فقد الاحساس بما حوله ، ونسى تماما أن فى يديه فوارغ ! ..

وكانت حرارته تقترب من حد الخطورة ، والعرق ينبثق من جلده الملتهب ، عندما عثر عليه المعلم صقر ، وبعد ركلتين استطاع شحته أن يفتح عينيه ، والتقت نظراته الملتهبة من الحمى بنظرات المعلم المحمرة من الغضب .. ومن حلقه المتورم خرجت كلمات ضعيفة مهزوزة :

— أنا مريض يا معلم !..

وصرخ المعلم :

— « مريض ! .. هو كل من يسخن يبقى مريض ! .. تعال هنا .. » .

وجذبه فى عنف ، ودفع رأسه الصغير تحت مياه الصـــنبور المتدفقة فى سرعة ، وظل يضغط عليها ، وشحته ينتفض من الألم ويعود ليفقد احساسه بنفسه ببطء !..

ولكنه أفاق فجأة عندما صفعه المعلم وهو يصرخ فيه :

— « مريض يا بن الـ .. انت مريض !.. حـالا تجمـع الفوارغ .. غور !! » .

وزحف شحته فى الدرب فى اعياء .. والفوارغ ترتعش فى يديه ، والدنيا كلها تتراقص فى عينيه ، والعرق يلمع على جبهته ، ويسيل على جانب فمه .. وبصعوبة وصل بالفوارغ الى المقهى ..

ولم يجد المعلم ولا الأسطى الجديد هناك ..

فجلس خلف « النصبة » يلهث فى اعياء !..

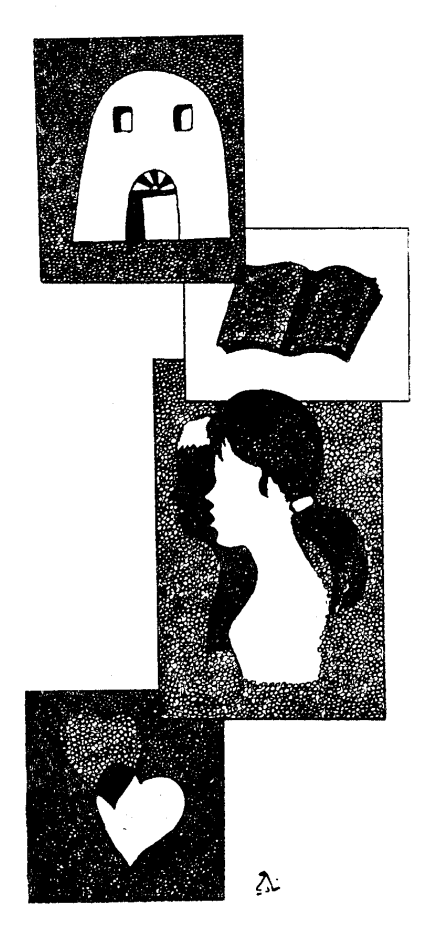
.. وتركزت نظراته المحمومة على الأكواب الفارغة الموضوعة بجوار الغـلاية أمامه .. وفى وسـطها زجاجة كاكولا فارغة .. وتسمرت نظراته على الزجاجة التى أخذت تتضخم وتتضخم حتى أصبح لها جسم المعلم صقر وكرشه وشاربه ونظراته الشرسة ووجه مربد كوجهه تماما .. سمع صوته القاسى يصرخ فيه فى تلاحق :

— « الفوارغ .. الفوارغ .. الفوارغ !! » .

فاندفع من مكانه ، وقبض على عنق الزجاجة بكل ما فى ضعفه من قوة ، وانهال بها على الأكواب والفناجين يحطمها .. ثم .. تركز حقده على الزجاجة فحطمها على بلاط المقهى ..

وخرج الى الدرب ، ينقل خطواته ، مبتعـدا عن المقهى ، وحبات العرق ما زالت تنبثق من جلده الملتهب ، ولكن .. كان ثمة احساس بالرضا يغمر قلبه !..


خطيئة



« ودارت رأسها .. ماذا تفعل ؟ ..
وارتسم فى خيالها المتعب صـــورة
فأر مذعور وقع فى المصـــيدة .. فى
بيتهم بالقرية ، وهى طفلة .. »

تقلص ، ضوء الشمس ، وانكمش .. وانكمش ، حتى ذاب فى الظلام الذى ملأ الغرفة الضيقة ، فوق سطح البيت القديم ..

واشتد الذعر فى نظرات فاطمة . وسرت رعـدة فى بدنها و .. ارتخت ذراعاها فى همود بجوارها حيث جلست على حافة الفراش المتسخ !..

وأول فكرة طرأت على رأسها فى هذه اللحظة هى أن تفقأ عينيها ، تشوههما بأية وســيلة ! انهما باخضرارهما الساحر سر شقائها .. سر ضياعها .. هما اللتان حفرتا لها هوة السقوط التى تلوثت فيها بكل قذارة الخطيئة !..

ولكن فاطمة .. لم تقو على أن ترفع أصابعها الى عينيها ، لتمسح دموعها التى تبلل وجهها الشاحب ..

واكتفت بأن استسلمت للبكاء فى يأس قاتل .. وقد اسودت الدنيا فى وجهها .. اسودت تماما .. حتى انها لم تعد ترى بارقة أمل واحدة .. لم تعد ترى وسيلة تنقذ بها نفسها من المصـير المنتظر !..

وبعد لحظة ، استطاعت أن تهمس لنفسها :

— يوسف مسكين مثلى .. انه لم يرغمنى علـى شىء .. لم يأخذ شيئا من غير ارادتى .. لقد استسلمت له بكل رغبتى .. ورضيت أن أعطيه كل شىء .. ما ذنبه اذن ؟

بيد أنها انتفضت فجأة ، وجذبت شعرها فى عنف !

— « ولكنهم سيقتلوننى .. سيمزقون جسدى بلا رحمة .. لا مفر من هذا المصير .. انهم لا يعرفون الا أننى جلبت عليهم .. كلهم .. العار .. العار !.. » .

وضربت قدمها فى الأرض بعنف ، وعادت دموعها تتفجر ، وهى تضع يديها فى رعب على بطنها .. انها حامل منذ شهرين !..

ودارت رأسها .. ماذا تفعل ؟..

وارتسمت فى خيالها المتعب صورة فأر مذعور وقع فى المصيدة.. فى بيتهم بالقرية .. وهى طفلة .. قبل أن يموت والدها وأمها .. وقبل أن تأتى الى القاهرة !..

ووضعت قدميها فى حذائها ، خرجت .. خرجت من حجرتها ، ومرت بغرفة أخيها .. الذى كان جالسا مع زوجته وأولاده .. وتوقفت قليلا .. بيد أن أحدا لم يحس بها .. أخوها لم يفعل أكثر من أن ينظر اليها فى صمت .. ثم جذب أنفاسا من سيجارته .. كعادته دائمـا .. لا يسـألها ان كانت فى حاجة الى شىء ..

بل ويضيق بها ، لأنها تخطت العشرين بسنوات ، ولم تتزوج بعد !

وتحركت فاطمة خطوات ، واقتربت بلا شعور من حجـرة أختها ، ولكنها كانت نائمة !..

« ان أختها تعرف .. انها تعرف ! » .

وانقبض قلب فاطمة . وارتعشت يداها فى يأس .. أختهـا تعرف ما حـدث لها .. ومع ذلك ما زالت صامتة .. ولم تثر الفضيحة !..

انها متزوجة .. وفاطمة تعرف أنها تخون زوجها كثيرا .. ولكنها تصمت .. تتبادلان الصمت واللامبالاة !

ولكن فاطمة لا تملك حرية الخطأ مثل أختها لأنها عذراء !.. ومفروض فيها أن تبقى عذراء .. هم لا — يعرفون شيئا آخر غير ذلك !..

واستدارت فاطمة ، وخرجت .. خرجت من البيت ، دون أن يسألها أحد الى أين !..

طفل صغير ، قابلها على السلم . ونظر اليها فى صمت .. انه ابن الجيران .. شقيق يوسف .. ووجدت نفسها تنحنى عليه ، وتقبله ، ثم .. تندفع فى صمت ..

.. لم تتوقف .. ظلت تسير فى كآبة .. ولم تعد تحس بشىء

مما يدور حولها .. الطريق يغص بالمارة .. وسوق باب الشعرية زحام كبير .. وشاب رقيع يضربها فى صدرها بيده .. ولم تقل شيئا .. لم تقو على الاعتراض .. أو سبه .. كما كانت تفعل من قبل ، يوم كانت تحس بأنها ثمرة مقدسة .. طاهرة .. أما الآن ، فهى لا تحس بطهرها ونقائها .. تشعر بأنها فقدت ما كانت تثور من أجله .. فقدت كل شىء !..

أجل .. فقدت كل شىء !..

أختها قالت لها .. بلا مقدمات ، وبصـــوت يخـــلو من أى احساس :

— « يجب أن تتصرفى يا فاطمة .. بطنك تنتفخ !.. » .

أختها قالت لها ذلك بلا مبالاة .. أيضا !..

تتصرف . كيف ؟!..

ماذا تفعل ؟.. انها تجربتها الأولى .. لم تقو على ســؤال أختها ، التى لديها خبرة ولا شك .. وانما أحنت رأسها ، وبكت فى كآبة شديدة !..

ومرة أخرى أخبرتها أختها ، بلا مبالاة أيضا ، عن وسائل تجهضها !..

وفعلا جربت بعضها ، ولكن بطنها ما زال ثقيــلا ، والجنين يمتص كل ما فى حياتها من أمل !..

مر كل ذلك بخاطرها المعذب .. وهى تسير .. وتسير .. وقد ذابت من رأسها كل غاية . وكل هدف .. لا شىء .. لا شىء .. سوى المزيد من الانتحار البطىء .. هذه هى أيام عمرها !..

وعبرت الطريق .. فى زحام المواصلات بالعتبة .. وتعمدت المرور وسط العربات ، علها تصدم .. تموت .. ولكنها ذهلت عندما وجدت نفسها على الجانب الآخر من الطريق .. ما زالت تحيا فى العذاب !..

وتراقصت الأضواء ، فى دموعها ، التى تملأ عينيها و .. يداها تتقلصان فى خوف .. خوف شديد !..

ولا أمل .. لا أمل فى قلبها الحزين !..

وعبرت الطريق ، مرة أخرى .. وواصلت السير ..

« يوسف لا يستطيع الزواج بى الآن .. ولا بعد عام .. انه وحيد أمه .. مات والده ، وترك له أسرة كثيرة العدد .. وتركه كذلك فى المدرســة الثانوية ، لا يعــرف كيف يدبر مصاريف دراسته !..

كيف يتزوجها اذن ؟.. انها تحبه .. وتخاف عليه من العذاب .. لا تستطيع أبدا أن تغرقه فى مزيد من الألم والحيرة !..

وهو .. يشفق عليها .. ويتعذب من أجلها .. رأت هى ذلك

فى نظراته .. وفى كلماته .. الحانية وهو يحدثها .. ويسألها فى رعب ظاهر :

— « ماذا تفعل يا فاطمة ؟!.. » .

ما ذنبه ؟.. ما ذنبه ؟.. انه شاب مندفع وأنا .. أنا أعطيته كل شيء .. برغبتى !.:

وشعرت فاطمة بلمسة يد على صدرها ، وهى تسير فى شارع الأزهر .. واقترب منها رجل .. الشراهة فى نظراته .. والجوع فى صوته .. وقال :

— « يا قمر .. يا .. » .

وسارت .. ورأسها مثقل بالعذاب ، واقترب الرجل مرة أخرى ، وقال وهو يضع سيجارة فى شفتيه :

— عندى مكان !..

وارتعشت خطواتها ، وسالت دموعها بغزارة فاقترب منها أكثر .. وسار بجوارها كأنه صديق ..

— « عندى مكان .. تعالى !.. » .

وأمسك ذراعها ..

« لم يعد لدى شيء أخاف عليه » ولكن .. طيف يوسف فى رأسها .. فى قلبها .. وعند رموشها .. المبللة بدموعها .. فخلصت ذراعها من يد الرجل فى عنف وعبرت الطريق ..

ولكن الرجل ظل يتبعها فى الحاح !..

ورأت عسكرى بوليس .. ولكنها لم تقترب منه .. مالت عن الطريق .. والرجل ما زال يتبعها .. واقترب منها عنـد اشـارة مقفلة ، وهمس :

— قلت .. عندى مكان !..

وارتعشت السيجارة فى شفتيه ، عنـدما سارت فى صـمتها المحرق ..

ودارت رأسها .. داخت .. وتزايدت دقات قلبهـا .. وهى تتوقف أمام مسجد السيدة .. بجوار رجل مهلهل الثياب .. انه أحد المجاذيب !..

وهتف الرجل ، ولعابه يبرق حول فمه :

— يا حى .. الله !..

وتسمرت نظرات فاطمة عـلى الأرض .. لحظات ثم انتقلت نظراتها الى المصلين الداخلين الى المسجد لصلاة العشاء .. والرجل يقترب منها فى عناد :

— قلت لك .. سنتعب .. عندى مكان !..

وعادت عيناها تستقران عـلى الدرويش الذى يصرخ فى غيبوبة :

— يا حى .. الله .. مدا .. د .. مدد !!

ولم يرفع رأسه اليها .. ولا أحد من المصلين أيضا .. فسارت .. وخطواتها تتعثر فى مشيتها ، والعذاب يعتصر ما فى جسدها المتعب من بقايا احساس وأعصاب .

والرجل يلح .. ويلح .. ويقترب أكثر وأكثر ..

وتعلقت عيناها بمئذنة جامع عالية .. عالية ..

—يا حى .. مدا .. د .. مدا .. د .. مدد !!

والناس فى الطريق .. مشغولون بما فى رؤوسهم والدنيا أمامها غارقة فى بريق .. وأضواء وظلال وصراخ عجلات الترام .. ولهاث عربات كثيرة ..

والرجل يقترب منها ..

— عندى مكان .. لا تكونى عنيدة .. تعالى !..

.. وطيف يوسف عند رموشها ، يرتعش ، مع دموعها ..

.. الوصفات البلدى .. أختها .. لا فائدة منها .. الجنين فى بطنها .. وأخوها .. زوج لثلاث نساء .. وأب لأولاد كثيرين .. لا يهتم بها .. لكنه لو عرف .. حقا .. انه سيقتلها لا شك .. أجل لا شك ..

— عندى مكان ! ..

وأشعل الرجل سيجارة أخرى ، واقترب منها أكثر ..

ورأت عسكرى بوليس .. ولم تبتعد .. بل ظلت تسـير فى

طريقها .. حتى توقفت بالقرب منه .. ولكنه نظر اليها ، ونظر الى الرجل الذى وقف خلفها .. ثم .. استدار الى عمله .. ينظم عملية مرور العربات فى الشارع !..

وسارت فاطمة .. وصدى صوت الدرويش يلهب أعصابها المتورمة :

— يا حى .. مداد .. مدا ..د !!..

و ... عبرت شريط قطار حلوان .. ببطء .. ببطء .. والرجل يتبعها عن قرب :

— عندى مكان .. لا تكونى عنيدة .. تعالى !..

.. واخترقت حى جاردن سيتى .. أخيرا .. والعذاب يلتهم ما بقى لديها من قوة احتمال !..

و .. الرجل يقترب منها ، ويهمس فى جوع :

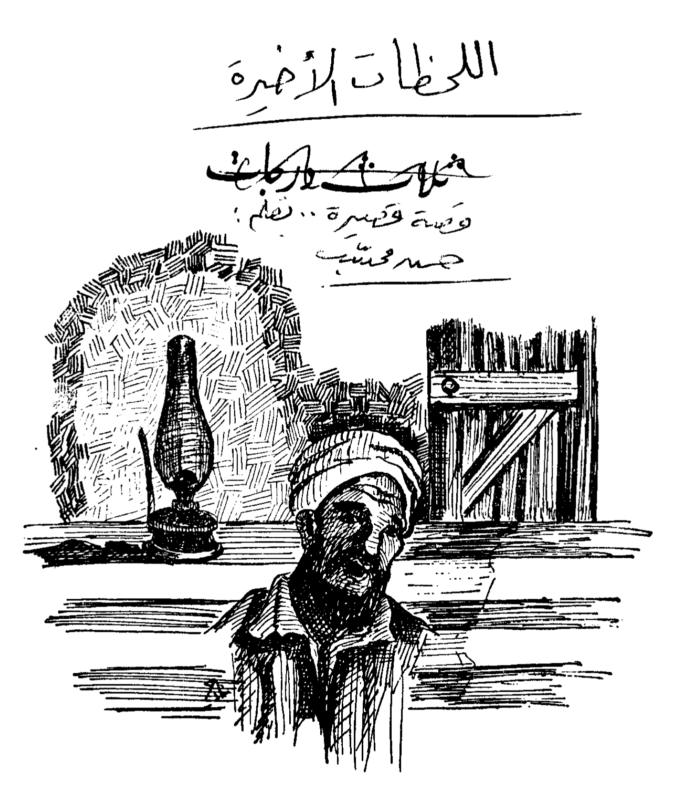
— قلت عندى مكان .. سأعطيك نقود .. و ..

وارتعشت بقايا سيجارته بين شفتيه ..

وفاطمة ، كأشلاء ممزقة . ممزقة .. ذائبة فى العذاب والألم .. تقترب ببطء .. ببطء .. من النيل !..

اللحظات الأخيرة

قصة قصيرة .. بقلم :



رأى بعينيه الكليلتين ، الظل يغمـره ، وقد توارت الشمس خلف الجدار ، الذى يستند اليه . وشعر بالبرودة الرطبة تلفح جسمه الذى نخره المرض ، فبرزت عظامه تحت جلبابه القديم ، الذى لا يلبس تحته شيئا .

ورفع يديه المعروقتين المرتعشتين ، وأخذ يلف الكوفية حول رأسه . وما انتهى من ذلك حتى كان يلهث ويهتز جسمه بسـعال شديد .

وقام من جلسته بجهـد شـاق ، وحاول أن يرفع قامتـه فلم يستطع ، فسار منحنيا ، يستند بيد على ركبته وبالأخـرى يعتمد على الجدار . وهو يتأبط صندوق البوية . وسار خطوات ، وكاد يسقط على الأرض ، فوقف يلهث ، وهو يلتقط أنفاسه من خلال سعاله الحاد .. وبجهد رفع يده على ركبته .. ووضعها فوق عينيه ، ومد بصره ، يقيس المسافة الباقية حتى يبلغ منامته .. وتنهد فى ارتياح ، وقد رأى أنه صار قريبا منها !..

وعاد ينقل قدميه ببطء شديد ، فى الوحل اللزج الذى يكاد يبتلع « مداسه » القديم ، وتوقف مرة أخرى ليلتقط أنفاسـه اللاهثة ، ولكن موجة من السعال هزت كيانه ، وكاد صـدره يتحطم وكادت علبة البوية أن تنفلت من تحت ابطه .. واغرورقت عيناه بالدموع ! ثم سار ، وقد أوشكت يده المعتمدة على الجدار أن تتجمد من ثقله المطروح فوقها ، ومن البرد ..

وأخيرا استطاع أن يصل الى قرب منامته .. أجل .. فلم يعد يفصل بينه وبينها سوى ثلاث درجات موحلة .. فنظر اليها ، وهو

يزم عينيه .. ويحاول أن يخدع نفســه ، فيتخيل أنهــا ليست موحلة .. أو أنها ليست موجودة أصلا ..

لكن ما أن استراح قليلا حتى انثنى جاهدا ، محاولا تسلقها معتمدا عــلى ذراعه المتشبث بالجدار .. وحاول أن يرفع قدمه ليضعها على الدرجة الأولى ، فلم يستطع .. انه لم يصعدها وحده أمس ولا أول أمس .. كان أحد المارة يعينه على ذلك وتلفت عله يجد انسانا مارا فلم ير أحدا .. فعاد وارتمى على الجــدار يائسا ، وقد غامت عيناه !..

ونظر الى الدرجات الثلاث الموحلة ، وكأنه يعتب على ذلك الرجل الكريم الذى وهبه منامته هذه !.. يعتب عليه لأنه لم يراع كهولته ، ومرضه ، فأعطاه ذلك البناء الذى يفصله عن الأرض ثلاث درجات ! .. ثم صندوق البوية الذى يثقله .

وهمس لنفسه فى ألم :

— « لابد أن أصعد ..! » .

وعاد الى محاولته اليائسة !..

ان الدنيا قد غامت ، وبدأت تمطر والبرودة تشتد ، ويداه تكاد أن تتجمد وقدماه لا يستطيع أن يرفعهما من الوحل اللزج ..

وتلاحقت أنفاسه من السعال الحاد الذى يهز جسمه ويكاد يحطم عظامه ، ثم نظر حوله ، وعلا البشر وجهه الذى ســوده

المرض وغضنته البرودة عندما وجد رجلا يمر ، وفتح فمه يستنجد به ، ولكن عضــلات فمه خانته فأخذت شفتاه تهتزان ، وكاد يسقط لولا أن تماسك فى اللحظة الأخيرة .. وشد ذراعه عــلى الصندوق ..

وعندما نظر مرة أخرى ، كان الرجل قد اختفى !.. فعاد ينظر الى الدرجات الثلاث ، وتمنى أن يغسل رذاذ المطر الوحل عنها !..

كان الى زمن قريب ينزل ويصعد وحــده ، لا يثقله صندوق البوية ، أما اليوم فهو لا يستطيع حراكا الا بجهد شاق ، بعد أن أصابه المرض الذى نخر عظامه وحطمه المبيت فى العراء ..

ونظر الشيخ « سعيد » بجهد الى الحجرة الرابضة فــوق الثلاث الدرجات ، وامتلأ قلبه غيظا على السيد ابراهيم .. لقــد أشقاه الرجل باعطائه هذه الحجرة ، التى تكلفه جهدا شاقا ، فهى مظلمة ، ورغم ما على سقفها من قش كثير ، فالمطر يتسرب منه ، وبابها الذى يصفر فيه الهواء الآن ، لا يمنع عنه البرد !.. ثم الثلاث الدرجات .. !!

وهمس الشيخ « سعيد » لنفسه ، وهو ينظر حوله ، عله يجد من يعينه على الصعود ،

— انها على كل حال أحسن من لا شىء !!

ولما لم يجد أحدا ، عاد يحاول بكل ما فى ضعفه من قوة ،

ورفع قدميه ووضعهما على الدرجة الأولى .. ولكن بعد أن كاد ينفجر من السعال الذى جاهد فى منعه حتى وضع قدمه ، وزاد لهاثه ، وسعاله ، الذى يهز جسمه الضعيف وحاول رفع قدمه الأخرى ، وبجهد شاق استطاع أن يقف على الدرجة الأولى .. ونظر الى باب الحجرة ثم الى الصندوق والى الدرجتين الباقيتين ، ونقاط المطر تتلاعب عليهما !..

وكاد الوحل ينزلق به الى الأرض ، فتماسك وبجهد استطاع أن يلتفت الى الشارع فى يأس ولكنه وجد ذلك الشاب الصغير الذى يأتيه كل مساء بالعشاء .. رآه الشيخ سعيد فابتسم وجهه المجعد الأسود ، وعاوده شعوره بالتجنى لظنه أن الناس لا يعبأون به وفتح فمه يحاول أن يتكلم ، فخرج حديثه أنينا خافتا [redacted] !.. فأسرع اليه الشاب يعينه على الصعود ، وأجلسه فى ركن قصى من الحجرة بعيدا عن الهواء الذى ينفذ من الباب ثم وضع أمامه الطعام ، وتركه فى سكون ، بعد أن أشعل « لمبة الجاز » ووضعها على صندوق البوية ثم أوقد نارا لتدفئه !..

وتنهد الشيخ سعيد ، فى شبه راحة ، وهدأ سعاله ، واستطاع أن يمد يده النحيلة المرتعشة الى الطعام ، وشعر بالدفء بعد أن أكل ، فحمد الله وحاول أن ينام فأحنى رأسه ، فوق ركبتيه ،

ولكن ذهنه المكدود شرد الى أشـياء كثيرة ، كثيرة جـدا .. وبعيدة .. بعيدة عن شيخوخته !..

أخذ ينظر فى حياته الطويلة التى عاشها ..

لم يعد يعى الا أنه خرج مهاجرا من الصعيد « الجوانى » ولم يعرف كم كانت سنه يوم ذلك .. ثم أخذ ينتقل من بلد الى آخر ، حتى استقر به المقام هنا .. فى هذه البلدة .

ويذكر أنه اشـتغل فى أعمـال كثـيرة .. بائعا جائلا .. وحمالا .. وعاملا فى « مصنع جبنة » ثم تكالب عليه المرض ، ونخر عظامه ، وولى شبابه ، فاكتفى بمسح الأحذية !..

ان حياته كلها شقية تعسة .. لا .. لم تكن فى حياته امرأة .. ولا طفل .. وكم كان يتمنى ذلك !.. فلو كانت له امرأة لكان الآن سعيدا بولد يملأ حياته ، ولنزل الدرجات الثلاث كل يوم وجلس فى الشمس بجوار الجدار المقابل ، ثم صعد معتمدا على معونتها ، ولما شعر الآن بالوحدة التى هى أقسى عليه من هذه البرودة التى تلسع جسمه الهزيل !..

ورفع الشيخ سعيد ، رأسه ، ومسح دموعه .. وانتفض من البرودة الشديدة .. وأخذ يبحث بعينيه فى أركان الحجرة ، حتى استطاع أخيرا على ضوء « الزبالة » المتراقصة فوق صـندوق البوية المتآكل ، أن يرى قطعتين صغيرتين من الخشب ، وعلبة

الثقاب بجوار رماد النيران التى خمدت ، وبعد مشقة اســتطاع أن يزحف قليلا من مكانه ، وأخذ القطعتين وبجهد استطاع أن يشعلهما ..

وأخذ ينظر الى النار وهو يشعر بالدفء يسرى لذيذا فى يديه المعروقتين المرتعشتين ، ولكن البرودة ما زالت تنهش ظهــره ، فثوبه مبلل والنار ضئيلة !..

ونظر حوله .. لم يعد هناك خشب ، فهاتان القطعتان كانتا كل ما تبقى من فرع الصفصاف ، الذى جــاء به ذلك الشاب الطيب ، وأشعله ليدفئه ..

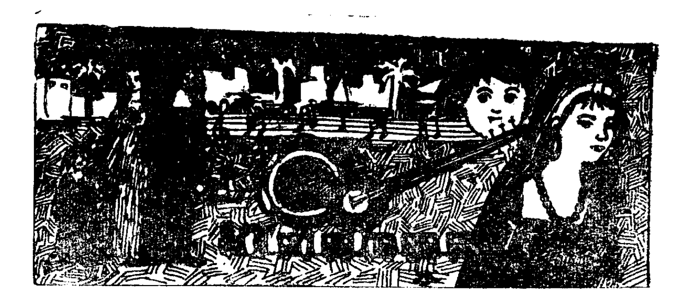
وتلاشى اللهب .. وتلاشى معــه الدفء الذى شــعر به .. وعادت البرودة تنهشه .. وانتفض جسمه ، وتحسس ثوبه بأصابع مرتعشة ، فوجده ما زال مبللا ، وتمنى أن تكون فيه القــوة الكافية — فيتمكن من اصلاح الباب .. ولكن الرطوبة تملأ الحجرة !..

انه يريد الدفء ويريد أن يجفف ثوبه ، وتلفت حوله ، فلم يجد غير القش الذى ينام عليه ! ..

ووجد نظراته تتركز طويلا على صندوق البوية القديم ..

ومد يدا مرتجفة ، وأنزل « لمبة الجاز » من فوقه وأخذ يشعل فيه النار وثمت شىء يشغله .. هو .. الثلاث درجات والغد ! ..

الشقيقتان



عرفتهما « مدّاحتين » فى القطار .. الكبرى ، وهى ليست جميلة ، وتكسو وجهها جرأة بهيمية ، وتعابث الشبان .. تضرب دفا وتغنى .. تساندها الصغرى ، وهى خجولة هيابة ، وفى صوتها نعومة هادئة ..

كنت أراهما كل يوم فى ذهابى الى عملى فى المدينة .. وفى أوبتى الى القرية .. واعتادت أذنى « مديحهما » فى النبى .. حتى لقد وعيت بعضه فى ذاكرتى .

كانتا تجدان صعوبة فى كسب قوتهما ، ومع ذلك تصران على العمل !..

وكان الطلبة المسافرون الى مدارس المدينة لا يكفون عن معاكستهما ، وقد يصر أحدهما على أن يسمع وشلته موالا أحمر .. فتغنى الفتاة الكبرى من أجل القرش الذى وعد به ، وقد يعطيها ، وقد يرفض حتى يسمع موالا من الصغرى ، التى تبدو أجمل من أختها وعندئذ يحمر وجهها المشوب بسمرة محببة ، وتبتسم ، وهى تقول بصوتها الرفيع الهادىء الذى يدل على أنها جديدة فى المهنة ! » .

— « والنبى ما أعرف ! » .

وتغنى الكبرى ، ولكن بعد أن تحدج أختها فى حدة ، فلا أدرى هل كانت تفعل ذلك لتزجرها . أم لأنها تشعر بنوع من الغيرة .. لتغازل الشبان بجمالها بينما لا يعيرونها هى التفاتا !..

ولم تكن صلتى بهما تتعدى عطفى عليهما أحيانا .. حتى كان يوم ، وعرفت اسميهما .. فقد قالت لى الكبرى ان اسمها « عطيات » وأن أختها الصغرى .. اسمها « شهدية » .

وحدثتهما فى فضول زائد ، آملا أن أجد فى حياتهما مأساة ، كما قرأت كثيرا عن أمثالهما !..

وعرفت أنهما تعولان أبا مريضا .. وأن أمهما ماتت وداخلنى أن ذلك يكفى لدفعهما الى الخطيئة !..

ولكننى نسيت أفكارى هذه فى اشراقة ابتسامتهما !...

وذات يوم لم أرهما معا .. وكانت الصـغرى « شهدية » وحدها تمسك « الدف » وتنقر عليه بأصابع متعثرة — وتغنى بصوت متردد ، وقد تورّد وجهها الأسمر .

ولكننى رأيت معها صبيا أصغر منها يمسك ربابة ويصاحبها فى مديحها ، بنغمات متعثرة !..

كانت « شهدية » كالتائهة ، وسط زحام العربة .. تغنى ، وبعض الفلاحين ، الذين أطربهم عزف الفتى على الربابة عطفوا عليهما ..

واقتربت منى الفتاة .. كان يبدو عليها اعياء وارتباك ، ولكنها كانت تتماسك وتغنى . والفتى الذى كانت ملامحه تنطق بأنه شقيقها ، كان كالآلة .. فذراعه تروح وتجىء ضاغطة الأوتار .. كان عزفه البدائى الساذج مع ضربات أخته المتعثرة ينثران حيرة وارتباكا مع مديحها !..

وسألتها عن أختها عطيات ، ولكن يبدو أنها لم تسمعنى ، أو أننى لم أتبين اجابتها فى الضجيج الذى ملأ العربة ، لشجار الكمسارى مع الطلبة .

وتجاوزتنى مع أخيها !..

ووجدتنى مشغولا بها .. عن شجار الطلبة «مع الكمسارى»..

ولا أنكر أننى منيت نفسى بالعثور على مأساة غريبة فى اختفـاء عطيات ..

ونزلت فى محطتى ، وما كدت أسير خطوات حتى سمعت صوتا مرتعشا ينادى ، فالتفت ، ووجدتها شهدية .. واقتربت منى الفتاة وقالت بصوت خجول :

— « والنبى .. أعطنى نصف ريال !!. » .

وبعد تردد وجدتنى أعطيها ما طلبته ، بل أكثر قليلا ، فابتسم وجهها .. ومن ثم هرولت ، فلحقت بالقطار فلم أتبين ما تمتمت به !..

وكنت ما زلت أفكر فيها عندما طالعتنى خيام الغجر القائمة فى مشارف قريتى ، فطاف بعقلى اننى أخطأت باعطائها النقود .. ولكننى دون أن أدرى لماذا طامننى شـعور براحة لأننى فعلت ذلك !..

ومرت أيام .. ولم أر شهدية ولا أخاها فى القطار ، ولم أعد أسمع صوتها ولا أنات ربابة أخيها ، ولا أنكر أننى فقدت الفتاة التى كنت أشعر بما يشبه العطف نحوها .. وان كان شعورى فى الواقع يفوق العطف .. كان شبه احساس بمسئولية .

.. كنت أجد نفسى أحيانا أفكر كأننى أستطيع أن أجعل من هذه الفتاة انسانة أخرى سعيدة كطفلتى الصغيرة ناهد .. فصرت

كلما رأيت ابنتى تراءت لى شهدية ، بوجهها الخمرى الجميل .. ويديها النحيلتين .. تضربان الدف فى تعثر !..

ودفعنى ذلك الى أن أعرض عليها — عندما — أراها . أن تأتى لتساعد زوجتى فى أعمال البيت .. وكنت أريد بذلك أن أشعر بأننى أؤدى بعض ما أحس به من مسئولية تجاه الفتاة .

وفى أثناء ذهابى الى المدينة بعد أيام .. رأيتها .. وكانت فى ثوب جديد من قماش رخيص ، مشرقة الوجه ، ويزين أذنيها وعنقها حلى زجاجية ..

وكانت تضرب الدف فى نشوة ظاهرة .. أخوها معها بربابته ، ولا يقل عنها فرحا ..

وابتسمت الفتاة عندما رأتنى أنظر اليها ، ولما اقتربت منى فى زحام العربة ، سألتها عن سبب غيبتها وعن أختها عطيات فأجابت وهى تداعب الدف بأصابعها :

— لقد تزوجت عطيات ..

فقلت بسرعة :

— تزوجت ؟!..

فقالت ، وضحكة حلوة تزغرد على شفتيها :

— تزوجت عندكم .. فى منية النصر !..

وعندئذ تذكرت معالم الزينة والفرح فى خيام الغجر . فى مشارف قريتى أول أمس .

وداخلنى شعور مفعم بالسعادة لأننى وجدت أن السقوط ليس نهاية أمثال هؤلاء البنات دائما ! .

ونزلت المدينة ، ولكننى تذكرت أننى قد نسيت أن أعرض على الفتاة أن تأتى لتعمل فى بيتى وترعى ابنتى .. وأرجأت ذلك لعودتى ..

وعندما اتخذت طريقى آخر النهار الى المحطة فوجئت بأن القطار معطل ولن يقوم قبل ساعتين .. وشعرت بالضيق ، ولم يكن مفر من الانتظار .

ولمحت فى جلستى بين الركاب « شهدية » وأخاها واقفين بين رفاقهما من المتسولين وجامعى أعقاب السجاير .. وهم يضحكون فى مجون .. والأولاد يعاكسونها ويعابثونها فى جرأة ..

وأرجأت مفاتحتها فى الموضوع حتى تركب .. وبعد انتظار ممل ، كان القطار ينساب فى بطء بين الحقول .. وما لبث المساء أن خيم على الكون والقطار فى منتصف المسافة الى محطتى ..

وأخذ عدد الركاب يتناقص تدريجيا حتى صارت عربتى شبه خالية الا من راكبين أو ثلاثة .. كانوا فى اغفاءة .

وكنت لم أر شهدية بعد ، فحسبتها تخلفت عن القطار ..

وشعرت بالتعب ، وبرغبة ملحة فى النوم .. ولكننى أفقت فجأة على حركة ، وهمسات ، فنظرت فى الظلام الذى بدأ يلف العربة غير المضاءة ، فتبينت شبحين ملتصقين فى ركن من العربة !..

وهممت أن أفعل شيئا عندما فوجئت بصوت صبى ينادى فى العربة الأخرى :

— « شهدية .. شهدية .. أين أنت ؟.. » .

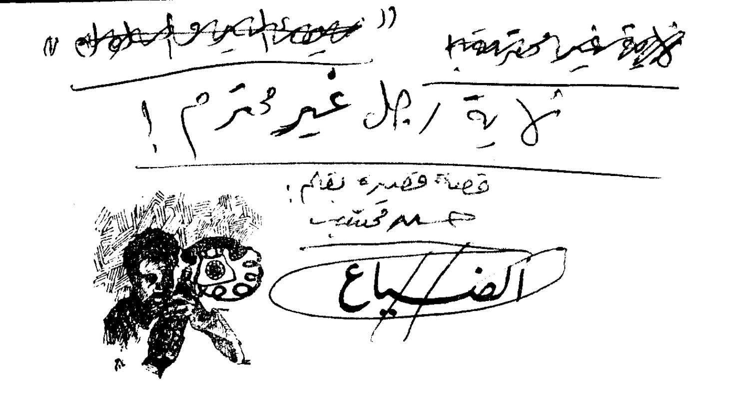
فافترق الشبحان .. وهرولت الفتاة الى العربة الأخرى .. بينما سار وراءها تلميذ فى ارتباك .. وشعرت بغيظ شديد .. وانتابتنى مشاعر متباينة .. ولكننى .. تمنيت لو صفعت تلك الفتاة التى حطمت فكرتى عنها .. ورأيى فى أمثالها .

ولست أدرى لماذا قفزت فى ذهنى عندئذ صـــورة ابنتى .. لو أنها فعلت ذلك هـــل تكفى صـــفعة لردها عن الانحراف .. و .. ارتفع صوتى ينادى :

— شهدية .. تعالى هنا ! ..

وفى استسلام أقبلت الفتاة وأخوها .. ووقفا أمامى .. فى صـــمت .. وفى بطء ارتفعت نظرة الفتـــاة الى وجهى ولكنها انكمشت سريعا فى ارتباك وخجل ..

و .. عندما جاءت محطة نزولى .. غادرنا القطار معا الى منزلى !!



ظل رنين التليفون يتردد لحظات طويلة ، فى سكون الليـل المشبع بالبرودة والمطر ، وأنا أنكمش أكثر وأكثر فى البطاطين ، محاولا أن أنسى أن التليفون يدعونى .. آملا أن يمل من يطلبنى فى هذه الساعة المتأخرة فيغلق الخط ..

ولكن الرنين ظل يتردد فى اصرار وعناد ، فلم أجـد بدا من مغادرة فراشى وأنا فى حـالة شـديدة من الغيظ وقبضت على سماعة التليفون وهتفت فى ضيق :

— أفندم .. أفندم ؟! ..

— آلو .. مين ؟ ..

— توفيق يا فندم .. مين سيادتك ؟ ! ..

وصمت الصوت الثقيل على الطرف الآخر لحظات .. ثم جاء عبر الأسلاك متداعيا يقول :

— اسمع يا توفيق .. انت عارف قبله مين اللى بيكلمك ؟

وزفرت فى غيظ .. وقد تطايرت بقايا النوم من عينى ولم يعد ثمة أمل فى أن أنعم بدفء فراشى ، ذلك أننى عرفت أن محدثى هو حافظ أفندى ، بصوته ~~المخمور الذائب~~ وكلماته الملتوية المدغومة التى لا وعى فيها ..

وهتف حافظ أفندى بصوته التائه :

— آلو .. يا توفيق ؟ ! ..

وأجبت بغيظ وحدة :

— أفندم يا حافظ أفندى ؟!

— حافظ أفندى كده من غير حاجة ؟

واتنفض جسدى من البرد ، وكانت الرياح التى تعوى فى الخارج تتعارك مع أشجار الحديقة القريبة ..

~~وقلت من بين أسنانى وأنا أنظر الى ساعتى :~~

~~— أفندم ؟~~ ..

~~— أفندم فى عينك !~~ ..

وصرخت فى التليفون :

— يا فندم الساعة الوقت بعد نص الليل .. حضرتك عاوز حاجة ؟ !

وغاب صوت حافظ أفندى المخمور لحظات .. جعلتنى أتذكر

الارهاق الذى يجلدنى طول النهار منذ اشتغلت كعامل تليفون فى هذه المصلحة ..

وقلت وأنا أتثاءب :

— ألو .. ألو ..

ولم أسمع سوى صوت رشفات . فوضعت سماعة التليفون فوق السويتش ، وهرولت الى فراشى ، وانكمشت فى بطانيتى .

ولم أستطع النوم .. فقد ملأت رأسى صورة حافظ أفندى

وأخذت أحدث نفسى :

— لا شك أنه يشرب الآن .. دائما يتحــدث فى سكر ، ويتصرف فى سكر .. ولا يعلو صوته الا اذا ناداه أحــد صغار الموظفين بسكرتير المصلحة .. اذ يهب فيه ساعتئذ :

— وكيل الوكيل .. وكيل وكيل المصلحة يا بجم .. فاهم ! ..

ولم أملك نفسى من الابتسام اشفاقا وأسى .. وأنا أتذكر ما حــدث أمس لحافظ أفندى .. عندما كان صاعدا الى مكتبه وقدماه ترتعشان فى اضطراب على الدرجات ، وواجهــة المدير بحــزم :

— لسه مشرف الوقت يا حافظ أفندى ؟ .

ولم يجب حافظ أفندى . وزمجر المدير فى وجهه :

— اتفضل .. وشرفنا فى المكتب بعد ساعة .. اتفضل ! ..

رأيت هذا المشهد وسمعته .. فغرفة التليفون بجوار سلم الادارة ..

وما حدث بعد ذلك عرفته . فقد تعمد حافظ أفندى ألا يذهب الى المدير . ولكن المدير طلبه بعد ساعة بالتليفون ووجدت نفسى أنصت الى ما يدور بينهما :

المدير فى عنف : اسمع يا حافظ أفندى .. الشغل شغل .. ده أولا .. والراجل اللى يخاف على كرامته لازم يكون راجل .. راجل محترم .. ده ثانيا ..

وقال حافظ أفندى مقاطعا فى صوت مرتجف :

— يا فندم .. أنا محافظ على كرامتى وشرفى كويس !!

المدير صارخا : وتأخيرك كل يوم عن الشغل .. آخرته ايه ؟ .. فهمنى .. حضرتك بتعمل ايه هنا ؟ .. وظيفتك ايه هنـا ؟ ! .. اتكلم .. فهمنى ؟ ! ..

حافظ أفندى بصوت مرتعش خافت :

— يا فندم حاضر .. فاهم ! .. لكنه [illegible] أنه راجل محترم ..

.. ثم صمت ، وانكمش أمام زمجرة المدير الذى واصـل حملته العنيفة فى مزيد من الغضب ، ثم أغلق السكة فى وجـه حافظ أفندى .

أفقت من هذه الخواطر التى زحمت رأسى .. أفقت على رنين

التليفون ، فأخذت أنظر الى السويتش بضيق وأنا ألعن حافظ أفندى وليلة حافظ أفندى .

ولم يكن هناك حل آخر غير مغادرة فراشي للرد على التليفون

— آلو .. أفندم ؟ ! ..

وصدمنى زعيق حافظ أفندى !

— آلو .. يا توفيق زفت .. انت يا ولد .. ألو .. و .. و .. يابن الكلب رد .. رد .. آلو ..

وتمالكت نفسي وقلت :

— أفندم !! ..

— أفنـــدم ايه .. وزفت ايه .. يا قليـــل الذوق .. ياللى ما عندكش دم زى المدير بتاعك .. انتم الاتنين ولاد هرمه ! ..

وصرخت لأوقفه :

— طب وأنا مالى يا حافظ أفندى ؟

— مالك ايه يعنى ؟ .. مش عارف انت عملت ايه ؟ لو كان المدير هو اللى بيكلمك كنت قفلت السكة فى وشه يا ... كنت اتكلمت كده زى ما بتكلمنى الوقت ؟ .. كنت « وسعل حافظ أفندى قبل أن يعود الى زعيقه » .. اسمع يا واد يا توفيق .. اكتب عندك الاشارة دى .. خلاص جهزت الورق والقلم .. اكتب:

« .. من وكيل الوكيل .. حافظ أفندى فى عينك .. الأستاذ

حافظ يا غبى .. كتبت ؟ .. الى مدير المصلحة .. طلب أجازة عن باكر وبعد باكر .. » .

وصمت برهة ، ثم سأل فى عنف وهو يسعل :

— كتبت ؟ .. كتبت ايه ؟ .. اقراها كمان .. كمان مرة .. زعق شوية مش سامع صوتك .. خلاص .. اثبتها عندك .. لأ .. فى الدفتر الرسمى ..

— بس يافندم .. الدفتر لاشارات الشغل ؟ ..

— بقول اثبتهـا فى الدفتر .. يعنى تثبتها فى الدفتر وأنا المسئول .. فاهـم .. أنا وكيـل الوكيل والا مش مالى عنيك يا .. فاكرنى ايه .. مش وكيل المصلحة ؟ .. يعنى فى ايدى أفصلك .. وأخرب بيتك وأوديك فى ستين داهيه .. والا أنت فاكرنى ايه ؟ .. فاكر ان المدير بتاعك دا يخوفنى ؟ .. هو يطلع ايه ؟ .. بنى آدم عمال يزعق ويشخط .. و ...

وغاب صوت الرجل قليلا ، ثم جاء عبر الأسلاك وكأنه أنين مريض ..

— اسمع يا توفيق يابنى .. أنا عارف انك سمعت كل اللى قاله المدير على السلم وفى التليفون ؟

— أبدا .. أبدا يا فندم أنا ...

فقاطعنى وقد غلف القلق صوته أكثر من قبل :

— لأ .. سمعت .. سمعت وخلاص .. لكن أوعى تفتكر انى بخاف منه مهما زعق .. أنا برضه وكيل الوكيل .. ليه كرامتى وأقدر آخد منه حقى بالقانون .. هو فاكرنى جبان .. ماليش كرامة لكن دا ما يعرفش حاجة أبدا غير الزعيق (وسعل) أنا صحيح نحيف لكن مش عيان .. أنا عندى صحة وكرامة زى زيه وأكثر ..

وحنقه سعال شديد ، ثم رشف كأسه بصوت مسموع وقال :

— اوعى تحسب ان الأجازة اللى أنا طالبها دى لأنى مريض أبدا .. أنا ح آخد أجازة بكره وبعده علشان .. علشان مزاجى كدا .. آه .. مزاجى يا توفيق آخد أجازة .. حد شريكى ؟ مين ؟.. المدير .. أبدا .. الشغل برضه أبدا .. أنا يابنى ليه فى الشـغل سنين وأيام .. تلتين عمرى آكلها ودوبها الشغل أنا على كيفى .. آجى على كيفى .. وأروح على كيفى .. آه .. على كيف كيفى .. كيـ ... فى !! ها! قلت ايه يا عم توفيق .. تاخد لك كأس .. يا ولد دى طعمها حلو .. لذيذ موت !. يا راجل خدلك شوية .. اوعى تعكر دمك ! ..

وابتسمت فى مرارة ، وقد سيطرت الحسرة على احساسى وشعرت بالاشفاق على حافظ أفندى .. ووددت لو أننى فعلت شيئا من أجله .. أو حتى أننى أستطيع أن أقول له كلمة مناسبة ، ولكننى وجدته يعاود حديثه بصوت يطحنه السكر :

— تعرف يا توفيق .. أنا ح ارتاح من وش المدير .. ح ارتاح وأريحه منى خالص .. ح اتنقل من عندكو خالص .. ح اتنقل من مصر كلها .. علشان أبعد عن وش المدير وزعيقه ..

وسعل حافظ أفندى ، وشرق صوته وازداد حزنى ونسيت تماما البرد والمطر ، وانتفاضة جسمى ..

وعاد صوت حافظ أفندى يزحف عبر الأسلاك كالمشلول :

— .. اللى مضايقنى يا توفيق يابنى .. ان المدير رفض نقلى كام مرة .. غاوى يضايقنى .. غاوى يزعق فيه كل يوم .. قدام العمال والموظفين .. غاوى كدا .. مزاجه كدا ..

وسعل .. وجرع كأسه رشفات مسموعة ثم قال :

— انت عاوز تنام يا توفيق .. تاخد لك شوية يفوقوك ؟ ..

.. تعرف يا توفيق .. أنت لازم رايق .. ومزاجك عال العال.. لأن لو كان فيه حاجة .. حاجة كبيرة .. كبيرة خالص .. حاجة كبيرة مضيقاك ومسوده حياتك كنت شربت لمّا بقيت زى حلاتى.. سكرى .. آه .. دنيا .. دنيا يابنى يا توفيق مافيهاش حد مرتاح !..

ثم .. أخذ يردد فى صوت كئيب :

— آه .. حاجة كبيرة .. حاجة كبيرة قوى .. مضلمة الدنيا قدامى .. والمدير برضه ما يبطلش زعيق ومسخرة فيه قدام اللى يسوى واللى ما يسواش .. آل أنا ما عنـديش كرامة .. آل

ما ليش شرف .. ده أنا عندى كرامة ونص .. أنا وكيل الوكيل ..

وتثاءب حافظ أفندى ، وجرع كأسه ، ثم قال فى رقة حزينة :

— تعبتك معايا يا توفيق يا بنى .. معلهش .. معلهش .. مع السلامة .. مع السلامة !! ..

وحاولت أن أقول شيئا ، ولكن الرجل أغلق السكة وتركنى غارقا فى صمت تلفه أفكار كئيبة .

ووجدتنى وأنا أعود الى فراشى ، أتساءل فى حيرة :

— حاجة كبيرة ؟ .. حاجة زى ايه يعنى يا حافظ أفنـدى الحاجة اللى تخلى الواحد سكرى وضايع بالشكل ده ؟ ..

وأراحنى النوم من حيرتى .. وأفكارى ..

وفى الصباح ، كنت أقرأ فى احدى الصحف عندما وقعت نظراتى على خبر صغير فى صفحة الحوادث يقول :

« موظف بمصلحة) ... (يطعن زوجته بالسكين .. وقد ثبت من التحقيق [illegible] .

.. وفى صمت .. وبمزيد من الأسى ، امتدت أصابعى الى طلب الأجازة الذى أملاه على حافظ أفندى أمس .. ومزقته ! .



غمرت الشمس ، شارع « درب السماكين » وبعثت فيه دفئها ، الذى سرى فى أجساد الصبية ، فأخذوا يلعبون ويمثلون حربا بين الانجليز والمصريين ..

.. لكنهم صمتوا عندما رأوا العربة الصغيرة تقترب منهم .. فى بطء ..

.. انهم يعرفونها .. ويعرفون عم عوضين .. الذى يدفعها أمامه .. واندفعوا اليها فى شوق ، بعد أن حرمتهم منها الغارات فى الأيام الأخيرة ! ..

وحملوا ترحيبهم فى زيطة وصياح ، الى الرجل الذى كان صامتا ..

.. وصدموا بوجهه المتجهم .. وفشل طرطوره الملون فى أن يبعث فيهم المرح والسعادة كالعادة ..

..وأحاطوا بالعربة فى صمت ، و .. أفاق الرجل من ذهوله ، ونظر اليهم .. وهو يبعث ابتسامة الى شفتيه المرتجفتين ..

ثم أوقف العربة ، وتناول طبلته ، ونقر عليها نقرات ، ليست كما تعودها الصغار ، وانبعث صوته المبحوح :

— « بصاغ الواحد .. يا حلاوة ! .. » .

وتوقف عم عوضين ، ولم يكرر نداءه ، فقد أحس بصعوبة فى نطقه .. فى اخراج كلماته .. لأنه لم يتعودها بعد .. وقد كانت نغمات طبلته ، وصوته مرسوما على نداء آخر ..

— « بتعريفة واحد .. يا حلاوة ! » .

ولكنه تشجع ، وقال : وهو ينقر على طبلته :

— بصاغ .. بصاغ واحد يا حلاوة ! » .

وتشعبط صبى بالعربة ، وقال :

— « بصاغ ؟ ! .. بصاغ ليه ياعم عوضين ! .. دى كانت بتعريفة واحد يا حلاوة ! » .

لفظ الغلام كلماته الأخيرة ، بنفس الطريقة التى كان ينغم بها عم عوضين نداءه ، الذى كان ينبعث فى حوارى البغـالة

ودرب السماكين .. فقال ، وهو يحاول تثبيت ابتسامته على شفتيه :

— « معلهش يا بابا .. أصل الحاجة غلت شوية .. والواد حليوه ابنى عيان وعايز أشتريله الدوا ! » .

ولكن الصبى تردد ، ثم رفض قائلا :

— « لأ .. دى تبقى صغيرة ! .. » .

وأغرقت الكآبة عم عوضين ، وهو يرى الأولاد يبتعدون عنه ، ويعودون الى ألعابهم ، يمثلون لعبة الحرب بين الانجليز والمصريين ..

.. وأحس بمزيد من الحزن .. وانقبض قلبه :

— « الواد ح يروح منك يا عوضين .. دا تحويشة العمر !!

وأطرق محزونا ، والأولاد قد اندمجوا فى لعبة الحرب ونسوه تماما ، بيد أنه همس :

— « الوقت تفرج .. علشان خاطر حليوه ! » .

ودفع عربته أمامه ، وهو ينادى :

— « بصاغ الواحد يا حلاوة .. يا حلاوة !! » .

وسار طويلا ، دون أن يوقفه أحد الصبية .. وأحس بالتعب، فتوقف ، ونظر الى أمشاط الحلاوة المرصوصة فوق العربة ، وأحس بسخط على صاحب المصنع .. وارتخت أصابعه ، وتوقف

عن ارسال النقرات الراقصة ، ورفع عينيه الى السماء فى حيرة .

انه يريد تكملة ما معه من نقود ليعالج ابنه ..

ونظر الى الأولاد المندمجين فى ألعابهم :

وآخرتها أنهب .. أسرق .. فيها ايه يعنى لو مشط الحلاوة زاد تعريفة .. القيامة ح تقوم .. البر ح يخرب ولكنه أفاق على نداء امرأة :

— يا بتاع الحلاوة .. ادى الواد مشط حمص كبير ! ..

وجذب أذنيه ، نداء طفل صغير ، فى مثل سن ابنه يقول ، وهو يناوله تعريفة :

— هات بتعريفة واحد حلاوة .. يا عم عوضين ! ..

وتأثر الرجل ، وهم أن يعطيه ، ولكنه تردد :

— « بالشكل ده يا عوضين لا أنت ح تداوى الواد ولا ح تسدد الشكك للمصنع ! .. » .

وحاول اقناع الطفل ، وهو ينقر على طبلته :

— هات من ماما كمان تعريفه ..

وقال الصبى فى عناد :

— « لأ كفاية تعريفه .. انت بتغلى الحلاوة ليه ؟ » .

وابتلع الرجل ألمه ، وقال :

— « تصدق برضه يا حبيبى ان أنا أغليها عليك .. أصلك

مش عارف .. احنا طالعين من حرب .. والسكر غالى شوية!.. ».

ولكن الأم صاحت به :

— « ما تخلص الواد يا راجل ! .. » .

— « يا ست مشط الحلاوة بقرش صاغ .. ما أنت عارفه السكر غالى والحلاوة بتتكلف والمصنع ... » .

وقاطعته المرأة بصوت مرتفع :

— « يا راجل يا مغلوانى .. انت اللى عاوز تكنز الفلوس .. يا راجل اختشى صلبتنى فى البلكونة .

.. ولم يعد عم عوضين يقوى على الصمت .. وتذكر دموع زوجته ، وابنه المريض ، عندما رأى بريق الذهب الذى تتزين به المرأة .. ولكنه كتم ثورته فى نفسه :

— « والله ما أنت عارفه حاجة .. ح أقولك ان ابنى حليوه مريض .. وانت مالك .. انت يهمك ابنك وبس ! ..

ولمعت الدموع فى عينيه ، وهو يرى الصبى ما زال يتشعبط فى العربة ، وفى نظراته رجاء فأحس بغضبه يتوارى فى أعماقه .. وامتدت يده الى مشط الحلاوة وأعطاه للصبى الذى غمرت الفرحة وجهه البرىء ..

و .. دفع العربة أمامه .. وهو ينادى :

— بصاغ الواحد يا حلاوه ..

ولكن الأطفال كانوا منهمكين فى لعبة الحرب غير واعين لندائه .. وان كان بعضهم نظر الى العربة نظرة خاطفة ..

.. فوجد نفسه يوقف العربة ، وينظر اليهم ، وقد شمله عناد شديد ، فراح ينادى بصوت مرتفع :

— « بصاغ الواحد يا حلاوة .. بصاغ الواحد يا حلاوة.. ».

.. وانبثق العرق من أجساد الصبية ، وهم ما زالوا مندمجين فى لعبة الحرب ..

.. وعم عوضين ، بح صوته ، فوقف يرقبهم فى غضب ! ..



عقدة ..

كنت مضطربا ، أشعر بالقلق يحرق أعصابى وأنا أسير مع زملائى الى معسكر التجنيد بالتل الكبير .. ولم يكن اضطرابى لرؤية المعسكر الذى تحيطه الرمال والصخور .. أو لأننى أغادر لأول مرة بيتنا ، وقريتنا .. وأبعد عن قوقعة الحنان التى وضعتنى فيها أسرتى منذ طفولتى ! ..

.. حقا ان أعصابنا نحن الريفيين تهتز ، وتغرقنا الكآبة عندما نفاجأ بالاغتراب عن بيوتنا لأول مرة ، ولكن هذا كله لم يكن سبب اضطرابى وقلقى .. وانما كانت كآبتى لشىء آخر ..

شيء يعذبني منذ كنت صغيرا .. والأطفال في حارتنا وفي الحقل يسخرون مني ويصيحون خلفي :

— « أبو رجلين كبيرة أهو .. أبو رجلين كبيرة أهو !! » .

ومن يومها وأنا أخاف الناس .. ولا أعرف كيف أواجه نظراتهم ..

.. وقد رسخ في عقلي أن أية نظرة الى مهما كانت هي سخرية من قدمي !..

.. وعذبني ذلك الشعور أكثر .. عندما طلبت للتجنيد .. وجعلني أكتئب رغم فرحة أبي ، وهو يقول لي في فخر :

— « والله كبرت يا مسعد .. وبقيت راجل .. أمال .. هو الجيش بياخد الا الرجالة .. » .

أجل .. كنت أتعذب .. أتعذب من الخوف .. فماذا لو رجعت الى القرية غير لائق ! ..

نعم .. ماذا لو رجعت الى القرية غير لائق !!

نعم .. ماذا لو رجعت « شرك » .. وملأت رأسي سخرية أهل قريتي مني لو حدث هذا ! ..

ونظرت الى قدمي في كراهية ! ..

وفي المساء انزويت بعد التتميم علينا في ركن العنبر الواسع ، تكورت على نفسي ، ونظراتي منكمشة بعيدا عن زملائي الذين

أخذوا يضحكون ويمرحون فى سعادة وقد وحد بينهم فجـأة الاحساس بالاغتراب ، والاحساس بحياة جديدة ..

ونمت نوما متقطعا .. عذبتنى فيه أحلام متلاحقة .. كانت كلها تدور حول قدمى الكبيرتين المفلطحتين ! ..

وفى الصباح ..

.. كنا فى طابور طويل أمام الأطباء .. وكان زملائى يتغامزون كلما وقف واحد منهم أمام الأطباء لتقرير لياقته أو عدمها للتجنيد .

وفوجئت بهم يتهامسون :

— « طلع شرك .. يا طوله ! . شرك ! .. » .

ووجدتنى أرقب الشاب الذى لم يقبل لعدم لياقته .. كان يسير مكتئبا ، ورأسه منكسا فى أسى ظاهر .. وارتعشت يدى ، وأغمضت عينى وصدى سخرية الأطفال من قدمى تلسع أذنى والعرق يبلل كل جسدى .. وزملائى لا يكفون عن التخمين :

— « لا يق .. شرك .. لا يق .. شرك .. شرك !! » .

.. وأخيرا .. وقفت أمام الطبيب .. وأنفاسى تكاد تنحبس فى حلقى الجاف ! ..

وفوجئت بجندى ينزع الشراب من قدمى وهو يسألنى :

— « لابس الشراب ليه ؟ ! » .

.. ولم أجبه .. وانما ازداد اضطرابى ! ..

وأغمضت عينى والطبيب يمسك قدمى .. الواحدة بعد الأخرى ، ويفحصها بدقة ، وهمسات زملائى فى الطابور تؤلمنى .

— « لايق .. شرك .. لايق .. شرك » .

وقال الطبيب :

— « اجرى يا مسعد .. اجرى بسرعة .. تعالى تانى .. افتح رجليك .. ضمهم .. أقعد على أزحك .. أوقف على مشط رجليك. على الكعب .. و .. » .

.. أخذت أنفذ ما يطلبه آليا .. وقلبى واجف .. وهمسات زملائى ، وصدى سخرية الصبية من قدمى الكبيرتين تحاصرنى فى قسوة ! ..

وأخيرا سألنى الطبيب :

— « حسيت بتعب يا مسعد .. رجليك وجعوك ؟ ! » .

ووجدتنى أقول بسرعة :

— « أبدا .. أبدا .. طول عمرى ما حسيت بأى تعب من رجلى ! .. » .

وقال الطبيب لزميله :

— « عنده فلات فوت .. بس مش قوى ! .. » .

واستدار الى ، وتركزت نظراتى على شفتيه فى ترقب ورجاء ..

.. وأخيرا .. قالها :

— « لايق يا مسعد .. مبروك ! » .

نـــزوة .

فكرة غريبة تملأ رأسى ، وتسيطر على وجدانى كلما ركبت الأوتوبيس ..

.. وهذه الفكرة ، قفزت الى رأسى ، عندما ركبت الأوتوبيس أمس .. ووقعت عيناى على الكمسارى التائه فى زحام الركاب ..

ونظرت الى الركاب .. كانوا مشغولين بأشياء تملأ رؤوسهم المتعبة من العمل طوال النهار .. والكمسارى بينهم كبهلوان .. فى زحام قاتل للأعصاب ..

.. وأغرانى ذلك بأن أنفذ فكرتى .. الغريبة ، وأريح منها رأسى .. ولكننى ترددت عندما شعرت بالاشفاق على الكمسارى..

بيد أن الفرصة جاءت ، عندما قال الكمسارى :

.. « تذاكر .. تذاكر .. حد نازل المحطة الجاية .. حــد له باقى ! .. » .

وببساطة بذلت مجهودا كبيرا فى تمثيلها قلت :

— « أيوه يا كمسارى .. ليه باقى ! ..

— « قد ايه يا أستاذ ! » .

وبكل جرأة قلت :

— « بقيت جنيه ! » .

ونظر الى الرجل ، ثم قال :

— « تسمح تورينى التذكرة ! .. » .

.. وانزعجت ، ولكننى أسرعت أقول :

« التذكرة أهه ! .. » .

وقلبها الرجل بين أصابعه ، ثم سألنى والاتهام يطل من نظراته:

— « ما فيش باقى مكتوب على ظهر التذكرة .. يا أستاذ ! ».

وبلا اضطراب قلت :

— « ايه دخلنى أنا .. انت معتمد على ذاكرتك .. وكلكم كدا .. » .

وكانت هذه هى المشكلة التى تثيرنى ، لأننى كثيرا ما كان لى باقى عند الكمسارى ، ولم أره يكتبه على ظهر التذكرة ومع ذلك أراه لا ينسى أن لى باقيا ..

.. ولذا رأيت أن أداعب هذا الكمسارى وأدخل معه فى مباراة ذكاء ..

وفى الواقع ، أننى فكرت أن أتراجع وأكشف عن دعابتى الثقيلة هذه ، الا أننى اكتشفت أنه قد أصبح من الصعب أن أفعل

ذلك .. لأن الركاب كلهم تدخلوا فى المشكلة ، وكأنهم وجـدوا شيئا يأخذهم بعيدا عن مشاغلهم ومشاكلهم المتعبة ! ..

لكن الذى أدهشنى حقا ، هو الراكب الذى جلس بجوارى عند المحطة السابقة .. اذ أنه هتف فى غيظ :

— يا أخى ما تعطى الباقى للبيه .. هى ايه .. أنا شايفه بعنيه وهو بيديلك الجنيه ! ..

يا خبر !! .. أنا أعطيت الكمسارى جنيها !!

وكدت أشك فى المسألة .. هل أعطيت الكمسارى جنيها حقا أم أن الفكرة السمجة جاءت فى رأس جارى هو الآخر .. ربما من باب توارد الخواطر !! ..

ونظرت الى الراكب الذى شهد معى بعنف .. انه قطعا .. لم يرنى ليصر على أننى أعطيت الكمسارى جنيها ..

وصعدت فيه نظراتى.. كان أنيقا .. ومع ذلك كان ثقيل الظل.. على قلبى ! ..

ووجدته يشخط فى الكمسارى :

— انت ايه يا أخينا .. عاوز تنهب فلوس الركاب .. واستدار الى وابتسامة سمجة على شفتيه وقال :

— تصور يا أستاذ .. ياما أخدت مقـالب بالشكل ده ..

ميكتبوش الباقى على التذكرة وبعدين ينكروا ان لك باقى .. حاجة غريبة .. » .

.. وأجمعت ألسنة الركاب الحادة على اتهام الكمسارى .. وأنا حائر .. أكاد أكشف لهم لعبتى .. ولكن الكمسارى حسم الموقف .. وأعطانى الباقى والأسف والشك فى نظراته يلسعان أعصابى وقلبى ! ..

وبكل صفاقة وضعت النقود فى جيبى .. ولكننى لم أحتمل البقاء فى العربة .. نزلت فى أول محطة وأنا أفكر فى طريقة أرد بها النقود للرجل المسكين ! ..

ولكننى بعد خطوات ، سمعت صوتا ينادينى فتوقفت واستدرت ويدى على النقود فى قلق ..

.. وفوجئت بالرجل الأنيق الذى شهد معى يقترب منى ، وابتسامته الثقيلة تلمع على وجهه ..

وقال ضاحكا :

— « تعرف انك سبكت الدور تمام ! » .. الظاهر انك أستاذ كبير فى المهنة ! ..

— مهنة .. مهنة ايه ؟! .

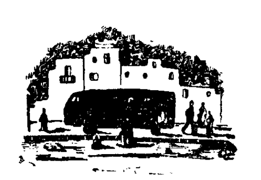
.. وحدق الرجل فى وجهى بنظرات قاسية وهتف :

— نعم نعم .. طب انت عملتها فى الكمسارى ولهفت بقيت جنيه أونطه .. حتعملها على أنا ..

ثم .. قال فى خشونة ..

— « ايدك بقى على نصيبى !! .. » .

.. وكان على أن أدفع ثمن نزوتى !!



قنبلة زمنية

صرخ أبى فى وجهى للمرة ربما الألف :

— « انت مستهتر .. اننى أصبحت أخجل منك .. سودت وجهى فى الشـارع كله .. ليتنى مت قبل أن أرى وأسمع فضائحك ! .. » .

.. ولم أحزن .. لثورة والدى .. بل اننى فى الحقيقة شعرت أكثر بالارتياح .. وتأكدت من أننى أجيد تمثيل دورى ..

.. فلم يكن استهتارى الذى أشيع عنى بشارعنا « بوهران » سوى ستارا أخفى به حقيقتى وأستغله فى تنفيذ أوامر القيادة .. ولكم أن تتصوروا المصير الرهيب الذى ينتظرنى لو كشف أمرى وعرف البوليس الفرنسى أننى السبب فى معظم الانفجارات وفى اغتيال أربعة ضباط فرنسيين ! ..

.. لذلك رضيت أن يخجل منى والدى ، لما أظهره له وللجيران من مداعبات سخيفة ثقيلة لكل فتيات الشارع ..

.. ولم أخف حقيقة أعمالى الثورية عن أبى لأننى أشك فى وطنيته .. لا .. وانما لأننى أعرف أن هدفه هو أن يرانى مثقفا

كبيرا ، أدافع عن قضية الجزائر ، وحريتها فى المحافل الدولية .. فهو بعد استشهاد أخى الأكبر فى احـدى معارك « بن بيلا » ازداد ايمانا بأن فى الجزائر الكثيرين الذى يضحون بأرواحهم فى سبيل تحرير الوطن من الاحتلال الفرنسى ولكن القلة هى المستعدة للدفاع عن حق شعب الجزائر فى المحافل السياسية .. لذلك كان سخط أبى على عنيفا .. لأنه يخشى فشلى فى الدراسة وبالتالى فشلى فى تحقيق آماله وأهدافه ومن أجل ذلك رأيت أن أخفى عنه حقيقة دورى الثورى الى حين حتى لا أغضبه ! ..

.. ولكن عندما ذهبت فى هيئـة المتسكعين — المنتظرين للمواعيد الغرامية ، الى المقهى الفرنسى ، وفى حقيبة كتبى ، قنبلة زمنية ، فوجئت بوالدى جالسا مع أحد زملائه فى مدخل المقهى..

ورآنى وأنا أدخل ، فصرخ فى وجهى منددا — باستهتارى ، وجذبنى من خصلات شعرى الطويل بعنف وهو يقول :

— أليس لاستهتارك نهاية .. متى تكف عن مطاردة فتيات المقاهى .. وتحترم نفسك ؟ ..

وخلصنى منه بعض رواد المقهى بصعوبة ؟ ..

.. وكان لابد أن أبتعد عن المقهى .. ولكن خطواتى ثقلت ، وتوقفت ، فالمهمة لابد أن تتم الليلة ، نظرا لحضور ضابط معين عرف عنه اضطهاده للطلبة الوطنيين الى المقهى الليلة ..

فماذا أفعل .. والأوامر صريحة .. القنبلة الزمنية فى حقيبتى لابد أن توضع فى المقهى الليلة .. بل فى خلال ساعة على الأكثر !..

وشعرت بحبات العرق تتدحرج على جبهتى .. وارتعشت يداى ..

.. اننى لو عدت فلن أستطيع دخول المقهى بعد ما حدث .. ولأن والدى ما زال هناك ..

.. ولأول مرة وجدتنى أضيق بأبى .. ولكن يبدو أن والدى ضاق بحرج موقفه فى المقهى ، فقد فوجئت به يقبل نحوى والسباب يتلاعب على وجهه وشفتيه ، فسرت أمامه ورأسى مثقل بالحيرة والعذاب .

.. وفى البيت ، لم أحتمل تأنيبه ، وتحت ضغط المأمورية العاجلة ، صرخت فيه :

— لقد ضيعت الفرصة .. ضيعتها ! » .

وهتف أبى :

— أى فرصة .. هل تسمى لقاءك بفتاة المقهى فرصة تستحق الندم لضياعها .. انك .. » .

فقاطعته فى غضب :

— « لا يا أبى .. انك لم تفهم قصدى ! » .

.. ولم يكن هناك مفر من الاعتراف له .. الاعتراف بأننى

أؤمن بايجابية الثورة .. أؤمن بأن الضرب بعنف هو الطريق الوحيد لحرية واستقلال الجزائر ..

وكنت أنتظر أن تزداد ثورة أبى على لأنه سـيرى أن كل محاولاته لابعادى عن تيار الحرب حتى أتم دراستى تتحطم فى لحظة .. بل كانت فاشلة معى منذ بدايتها .. لذلك سارعت باخباره بالمهمة العاجلة التى يجب أن تتم الليلة .. كأوامر القيادة ، وحتى لا تتعثر خطط أخرى تنتظر ضربتى ..

ومرت لحظة حرجة .. وانبثقت حبات من العرق بجبهة أبى ..

و .. فوجئت به يقول فى اصرار وكأنه يعتذر لى .. :

— سأعوض لك فرصتك يا ولدى .. اعطنى القنبلة سأضعها فى المقهى بنفسى ! ..

